١٦٠

روايات احلام

liilas.com

الشمس العمياء

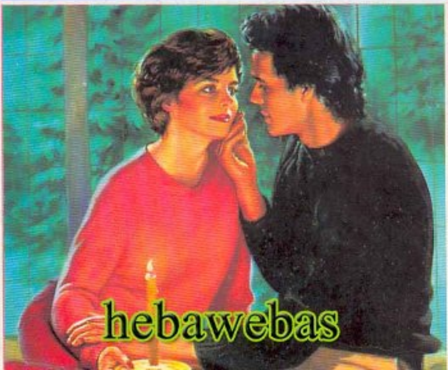

hebawebas

liilas . com

روايات احلام

الشمس العمياء

عرفت أن هذا سيحدث.. منذ البداية أحست بذلك المزيج الغامض من الإثارة والتململ! ذلك الإحساس الذي يسمونه الحب!

لم تعترف أنها بدأت تحبه منذ البداية لأن هذا أخافها حتى الموت! لكنه كان أمراً حتمياً لا يمكن تجنبه، مثله مثل الألم الذي جاء مع هذا الحب...

تعرف أنه محكوم على حبها بالاحتراق لأجل رجل لن يحس أبداً بحرارته... رجل تخلى عن الحياة بكل بساطة... رجل تجمد قلبه منذ خمس سنوات. فكيف لفتاة مثلها بسيطة وعادية الجمال أن تأمل في إذابة ذلك القلب؟ لن تستطيع... إنه لا يريد الناس، لا يريدهم أن يشهدوا طريقة حياته وانعزاله عن العالم... إنه ليس بحاجة للناس.

لقد فقد أعز ما يملكه، ولم يعد قادراً على الرسم، وها هو الآن غارق في حزنه... وكم كانت غبية عندما اعتقدت أنه تكيف! فلا شيء ولا احد قادر على تقديم العزاء له...

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل. الإمارات [illegible] مصر ٤ ج. ليبيا [illegible]
سوريا ٧٥ ل.س. قطر ٦ ر. المغرب ١٠ د. اليمن [illegible]
الأردن ١ د. [illegible] السودان [illegible]
الكويت ٥٠٠ ف. السعودية ١٠ ر. عمان [illegible] العراق [illegible]
hebawebas

١ ـ وجهاً لوجه

انضمت بريندا توماسن إلى شقيقها حول مائدة الفطور، وتوجهت عيناها نحو النوافذ لترى تساقط الثلج الذي تجمع طوال الليل.

ـ انظر إلى الطقس! من توقع هذا وفي وسط شهر آذار؟

ـ صباح الخير بريندا.

قدم لها دان كوب شاي ثم حرك إبريق الحليب الصغير و «الكورنفليكس» نحوها على الطاولة وأضاف:

ـ هذه انكلترا عزيزتي.. فحتى في آذار يتساقط الثلج. يستحسن أن تمهلي نفسك بعض الوقت قبل أن تذهبي إلى باكنغهامشاير.. فثمة عاصفة قوية قادمة وقد تسبب تراكم الثلج في الريف.. متى موعدك؟

ـ في الثالثة، دان ألن تعيد التفكير في النقاش الذي جرى بيننا ليلة أمس؟

قال بحزم: لا.

ثم ابتسم ابتسامة اعتذار: إنه لطف كبير منك أختي.. لكنك قدمت الكثير لعائلتك في الماضي ولن أسلب منك شبابك بالسماح لك أن تكوني مدبرة منزل دون أجر وأم بديلة لطفلاي.

توقفت ملعقة بريندا المليئة «بالكورنفليكس» في الهواء.. ثم أعادتها

إلى مكانها وضحكت لكلمات أخيها.

ـ تسليني شبابي؟ أنا في الرابعة والعشرين تقريباً ولا أعيش حياة فخمة! ولن تسليني شيئاً! سيكون الأمر مجرد استبدال عمل بآخر..

ـ هل حصلت على تعليمات للوصول إلى ذلك المكان؟

فهمت بريندا من مقاطعته لها أن الموضوع انتهى.. لن يسمح لها أن تنتقل للسكن معه لتعتني بمنزله وولديه، مع أن دايفد وآنيس بحاجة ماسة لمن يعتني بهما..

التقطت بريندا فنجان الشاي ونظرت إلى أخيها.. إنه سيكمل سن الأربعين بعد ستة أشهر، خط شعره الأمامي يتراجع إلى الوراء بسرعة وهناك خطوط إرهاق حول فمه وعينيه.. بالرغم من هذا كان لا يزال رجلاً جميل الطلعة، أجمل بكثير من أخته.. كان لها ذات الشعر الأشقر الداكن، لكن مع بياض بشرتها وبعض النمش لا يمكن وصفها سوى بالمقبولة. عيونهما متماثلة ما عدا أن عينا دان أكثر خضرة وأكبر حجماً، بينما عينيها حسب رأيها من الصعب إعطاء وصف لهما.

دان رجل وحيد مع أنه ينكر هذا.. لقد استعاد تماسكه بعد وفاة زوجته والفضل في هذا لولديه وحاجتهما الماسة له.. لكنه كان يعمل بجهد كبير، يقوم بواجبات مكتبه في النهار وبمتطلبات ولديه في التاسعة والعاشرة من عمريهما، في المساء.. وقد بدأ الإرهاق يظهر عليه مما أقلق بريندا.

كانت أكبر أمنية لها أن يلتقي أخوها بامرأة ليتزوج من جديد.. امرأة.. حتى ولو كانت بنصف طيبة ورقة زوجته الأولى،.. لكن يبدو أن لا فرصة لحدوث هذا.. فالحياة الاجتماعية عند دان لا وجود لها، وبالرغم من أن بريندا كانت تقضي نهاية كل أسبوعين عنده لترعى الولدين، إلا أنه لا يستغل فرصة وجودها ليخرج.

مال إلى الأمام يلكزها بلطف:

ـ هل أبعدتني عن أفكارك؟ كنت أسأل ما إذا كان معك تعليمات

للوصول إلى مكان المقابلة.. بإمكاني إحضار خريطة للطريق وأدلك..

ابتسمت: لا بأس في هذا.

فتشت في حقيبتها بحثاً عن ورقة مكتوبة أعطيت لها في الوكالة في اليوم السابق فيها تعليمات دقيقة للوصول إلى باكنغهامشاير.. مع أن التفاصيل عن مخدومها المتوقع والعمل نفسه لم تكن دقيقة.

كانت المكالمة من مكتب التوظيف قد وصلت في الخامسة وخمس دقائق من اليوم السابق، الجمعة. وفي الخامسة عادة موعد إقفال مكاتب الوكالة.. أخذت بيني المديرة تعتذر، شارحة أنها مستعجلة وأن عليها الإسراع للحاق بالقطار. لذلك لم تعط بريندا الكثير من التفاصيل عن مهمتها، وطلبت منها أن تقدم نفسها إلى السيد غريفز في منزل خاص في «باكس».. قالت فقط إن السيد غريفز كاتب، وإنه يحتاج إلى سكرتيرة بصورة ملحة لكنه يود أن يقابلها قبل أن يقرر توظيفها.

كان عمل بريندا الحالي قد انتهى ظهر ذلك اليوم، وكانت فعلاً تفكر بإجازة أسبوع.. لكن هذه حالة طارئة كما قالت بيني، لذا وافقت على مقابلة السيد غريفز ووضعت بعض الملابس المناسبة في الحقيبة الصغيرة التي كانت ستأخذها إلى «سوراي»، مع أنها كانت مصممة على العودة إلى منزل أخيها بعد المقابلة.

أعاد دان لها الورقة وهز رأسه:

ـ يجب أن تمنحي لنفسك مهلة ساعتين ونصف من هنا تقريباً لتصلي.. ولتكن ثلاثة.. أليس غريباً أن تكون المقابلة يوم السبت؟

ـ من الغريب أن يكون لدي مقابلة أصلاً! فنحن عادة نكلف بعمل ما وهذا كل شيء.. فاسم الوكالة توصية كافية!

كانت بريندا تحس بامتعاض خفيف، فقد مضت فترة طويلة لم تجر فيها مقابلات عمل.. إنها ليست مجرد طابعة عادية، إنها كاتبة اختزال من أعلى مستوى وتعمل لوكالة لندنية ضخمة تتعامل فقط مع صفوة من الناجحين كلهم موهوبين في الاختزال.. إنهم جميعاً القمة في مهنتهم،

نساء ورجال، وربما الأفضل في البلاد كلها.

قبل الانضمام إلى «وكالة يورك» كانت بريندا قد أمضت سنتين ككاتبة اختزال في المحاكم.. ثم أمضت ثمانية أشهر دون عمل للعناية بأبيها الذي كان يحتضر. لكنها كانت تتدرب على المحافظة على سرعتها بتسجيل الأخبار من الراديو والتلفزيون، وانضمت إلى وكالة يورك بعد وفاة أبيها وبعد أن بيع منزل العائلة واشترت لنفسها شقة في «بادنتغتون».

عادة، كانت مهماتها في أي مكان تدوم ما بين اليوم الواحد والشهر.. كانت قد حضرت اجتماعات ومؤتمرات من كل حجم ونوع.. وطلب منها باستمرار السفر إلى لندن وعملت قبل الآن لكاتب.. ويا لها من مهمة مضجرة! لحسن الحظ كانت تعمل عوضاً عن فتاة أخرى واستغرقت المهمة عشرة أيام فقط. وكان العمل لامرأة عجوز تؤلف كتاباً عن تربية النحل.

ـ إذا حصلت على هذا العمل..

قاطعت شقيقها:

ـ سأحصل عليه! لكنني قد لا أقبله!

ابتسم دان لثقتها بنفسها خاصة وأنها ثقة مبررة.

ـ إذا عرضت عليك المهمة وقبلتها، ألن يكون الانتقال من لندن إلى «باكس» كل يوم متعباً؟ خاصة القيادة إلى هناك في ساعات الزحام؟ أكره لك هذا!

ـ أبداً.. ثم أنا أتقاضى أجر وقت سفري، لذا لن يكلفني الانتقال شيئاً.. هل نسيت أيام كنت مضطراً للانتقال من منزل ذوينا في أقصى «كنت» إلى المدينة كل يوم؟

يومها كان يتعلم مهنته وكانت بريندا فتاة صغيرة. كان في كل مساء يعود إلى المنزل، يأكل ثم يختفي في غرفته ساعات طويلة بدرس. الآن هو يعمل محامياً، إنه شريك في مكتب صغير ناجح في «غويلدفورد» في ضاحية «سوراي».

الانتقال من كنت إلى سوراي كان أمراً فعله دان حين تزوج سالي.. وهو لا يزال يسكن ذات المنزل ويعمل في ذات المهنة.. كانت بريندا قد اقترحت أنه من الأفضل له وللأولاد أن ينتقل إلى منزل آخر في الناحية الأخرى من البلدة، حيث لا شيء يذكره يومياً بخسارته. لكنه رفض وأصر على وجوب أن يحتفظ المرء بالذكريات حية وأن يبقى في المنزل الذي كان فيه يوماً سعيداً.

سألت وقد لاحظت ثقل تساقط الثلج:

ـ أين الولدان؟ في الحديقة الخلفية.. أراهن!

ـ وأين غير هناك؟ إنهما يبنيان رجل ثلج.

ـ لكنهما سيتبللان! هل تناولا الطعام؟

ـ كورنفليكس فقط.. كنت على وشك تحضير لحم وبيض.. هل تحبين شيئاً منها؟

رفعت عينيها إلى السماء وضحكت:

ـ سأعدها أنا.. ابق أنت مع صحيفتك!

مع قدرته الرائعة على التسوق وقضاء وقته مع ولديه والقيام بواجباته نحو عمله، فإن الطهو كان شيئاً لا يقدر دان عليه.. حتى أنه كان يخلق الفوضى وهو يسلق بيضة، وليس ناجحاً كذلك في الأعمال المنزلية.

تنهدت بريندا وهي تفتح البراد لتلاحظ أنه بحاجة ماسة لإذابة الثلج منه.. ربما يفكر دان أن قضاء وقته مع ولديه أهم من هذا.. من الواضح، أن منزله منذ انتقلت المرأة التي كانت تخدمه نهاراً إلى الشمال منذ ثلاثة أسابيع مهمل بشكل يثير الحزن.

على الأقل، استطاعت إقناع أخيها أنه بحاجة إلى مدبرة منزل مقيمة.. ليلة أمس حدث بينهما نقاش طويل كاد يتسبب في شجار.. فقد كانت بريندا قلقة جداً على ولدي أخيها وعليه، حتى أنها عرضت التخلي عن عملها والعيش معهم، لترعاهم. ولم تكن هذه المرة الأولى التي تطرح فيها الفكرة، لكنهما لم يبحثاها بصمت من قبل. وكان دان يرفض

الإصغاء، ويقول إنه لن يسمح لها بأن تتخلى عن مهنتها لتنتقل إلى قرية صغيرة هادئة وتصبح عمة عانساً لا حياة خاصة لها.

لم يكن هناك فائدة من الجدال معه فهو عنيد جداً، لكنه على الأقل اعترف بأنه يحتاج إلى من يرعى منزله لوقت كامل ووافق على وضع إعلان يطلب مدبرة منزل.. وبهذا حققت بريندا بعض التقدم أخيراً.

من نافذة المطبخ، أبقت عينها على آنيس ودايفد، وهي تحضر الفطور وتفكر بحياتها.

كان عملها ككاتبة اختزال ممتعاً، وهو عمل نادراً ما يكون مضجراً. لقد وصلت إلى مرحلة لا جديد فيها بعد مقابلتها لكل أنواع الناس، وفي كل أنواع الأعمال والمهن، لم تعد مهمة ما تثيرها أو تتحداها.

كانت حياتها في عالم التجارة محمومة مرهقة ولكن حياتها كفتاة عزباء غير جذابة كانت دائماً فارغة.. كانت تؤمن أنها ستكون سعيدة جداً بأن تبيع شقتها وتعيش مع أخيها لتكون الأم البديلة لولديه.

كان الزواج أمراً لم تفكر به.. فلا جدوى من التفكير. إنها بكل تأكيد لا تلفت النظر، إلا أنها تعرف أن ما يلزمها هو رجل غير عادي ليقنعها بالالتزام مدى الحياة.. وما تتطلبه في الزواج صعب الوجود.. ومع هذا كانت كذلك واقعية.. فبأساريرها البشعة تقريباً وجسدها الذي أصبح مترهلاً قليلاً مؤخراً، حتى الرجل العادي لا يرغب في أن تخرج معه!

مع كل هذا كانت قانعة.. مرتبها جيد، ترتدي أفخر الملابس، تملك شقة وسيارة، مكتفية ذاتياً.. ولو أن الحياة في لندن موحشة في بعض الأوقات.

في الحادية عشرة، غادرت منزل دان نحو باكنغهامشاير، وقالت للولدين وهما يودعانها إنها ستراهما في المساء، وحذرها دان من أن تقطع وعداً فالثلج قد يتحول إلى عاصفة.. لكنها أصرت:

- لا تكثر الكلام.. سأعود. لقد خططت لحفل شواء كبير في الغد.. أراكم فيما بعد.

- حسن جداً.. حظ سعيد في مقابلتك.

- إنه مجرد عمل عادي.. سأقول للسيد غريفز هذا إنه لن يجد سكرتيرة أفضل مني. وإذا لم يعجبه منظري، فسيخسر لأنني سأتمكن من الاختيار من بين عشر مهمات أخرى يوم الاثنين.. وسأقول له هذا!

بدا دان مرتاعاً.. ثم ضحك من كل قلبه:

- كذابة! لن تقولي شيئاً من هذا!

سارت بريندا إلى المرآب وضحكتها ترن في الهواء البارد الرطب، والثلج يتحطم تحت حذائها الشتوي الثقيل.. يا إلهي، الطقس بارد فعلاً!

دار محرك سيارتها دون صعوبة.. وحين وصلت إلى الطريق العام، كان السخان في سيارتها الصغيرة يعمل بأقصى طاقته، واسترخت مع امتلاء السيارة بالدفء. كانت ترتدي حذاءً ثقيلاً عالي الساقين بلون بني، ومعطفاً من جلد الخراف.. كانت التنورة التي جربتها أول مرة هذا الصباح، ضيقة مع أنها اشترتها منذ فترة قصيرة.. هكذا رضيت بتنورة بلون جلد الجمل.. ومع كنزة صوفية مماثلة، وسلسلة ذهبية بسيطة، كانت تبدو أنيقة وسكرتيرة كفؤة.

لكن يجب أن تنظم طعامها حقاً.. فالكيلوات الثلاثة والنصف التي اكتسبتها منذ الميلاد، بقيت معها، وهي لا تبدو جميلة مع جسمها الصغير الحجم وارتفاعها المتوسط.. لكن من الصعب اتباع حمية خاصة خلال الشتاء حين يميل المرء إلى الأكل أكثر في جهد للتغلب على البرد.. مع ذلك فالربيع قريب.. على الأقل هذا ما يجب! لكن ما من أحد يحلم بهذا أمام طقس اليوم.

أبقت سرعتها منخفضة تركز على قيادتها لا تشعر بأي فضول حول السيد غريفز أو مهمتها المحتملة.. كان الطريق العام مبللاً جداً والرؤية ضعيفة.. هكذا بقيت تلازم المسار البطيء في الطريق، مسرورة لأنها تركت لنفسها مزيداً من الوقت للرحلة.. إنها تكره شيئاً اسمه عدم الدقة في المواعيد.

كانت ممتنة لأخيها حين وصلت إلى باكنغهامشاير لتجد نفسها تسير في طرق ريفية ضيقة خطرة.. كان الثلج هنا عقبة فعلية، يتكوم بكثافة لعدم وجود سيارات مارة.

بوصولها إلى مفترق ثلاث طرقات، توقفت ونظرت إلى خريطتها المرسومة باليد: «تابعي الطريق من مفترق «غريت بريكهيل» نحو اليسار نحو...» لكن هل هي الآن في «غريت بريكهيل»؟ أم أن مفترق الطرق لا زال إلى الأمام؟ بالطبع لا يوجد أحد تسأله.

قدر الحدس وحده أن تستدير إلى اليسار، وما هي إلا دقائق حتى وجدت نفسها تتبع خريطتها بدقة عشر دقائق أخرى. وبعد أن قطعت الطريق كله الذي يجب أن يكون منزل السيد غريفز فيه، أوقفت سيارتها مرة أخرى. لكنها لم تكن مرتبكة بل ساخطة قليلاً.. فهذا الطريق لا يعدو كونه درباً ريفياً ضيقاً تغطيه الثلوج، والشجيرات تعلو كثيراً بحيث لا تستطيع رؤية ما حولها.

كانت على وشك الخروج من سيارتها حين حالفها الحظ.. فهناك سيارة فان تابعة لمركز البريد تتقدم نحوها ولم تتردد في إيقافها.. وابتسم لها وجه السائق الأحمر:

ـ هل أنت في مشكلة؟

ـ لا.. لا.. لكنني ضائعة قليلاً.. فأنا أبحث عن منزل يدعى «سيلينا هاوس».

ورفعت يدها ترد الريح والثلج عن عينيها، فرد السائق بلطف:

ـ إنه هناك، سيري حوالى المئتي يارد بعد فتجديه إلى يسارك.. إنه بعيد قليلاً عن الطريق، لكنك سترين البوابات.. وداعاً!

ورأت بريندا البوابات.. كانت من الحديد المشغول المزخرف ترتفع ستة أمتار وسط جدار من الآجر الأحمر.. ووراء البوابات هناك جادة تحيط بها عمدان توصل إلى المنزل.. لكن المشكلة كيف تصل إلى تلك الجادة؟

أوقفت السيارة أمام الأبواب ولم يعد أمامها سوى أن تخرج لتتفحص. كان الفضول يتحرك في داخلها وهي تنظر إلى هذا.. هذا المدخل المهيب.. ما هو هذا المكان.. معتقل؟

عند خروجها من السيارة، رأت لوحة نحاسية مثبتة إلى أحد العمدان الاسمنتية التي تتعلق البوابات فيها مكتوب عليها ببساطة «سيلينا هاوس».. يا له من اسم جميل لمنزل! فيه إحساس بالهدوء والأمان.. لكن اللوحة كانت صغيرة جداً بحيث لا تكاد تكون سوى اعتراف خجول بوجود المنزل.. واضح أن السيد غريفز يتمتع بخلوته.

تأكدت تلك الفكرة لها حين برز من حيث لا تعلم كلبان ضخمان من الناحية الأخرى من البوابة ينبحان بشدة.

قفزت بريندا إلى الخلف مذعورة لشراسة كلبي الحراسة وممتنة جداً للبوابة التي تقف بينهما.. كيف من المفترض أن تدخل هذا المكان؟

ثم، وعن يمينها، سمعت صوتاً أجشاً يسأل: من الزائر؟

التفت رأس بريندا لكنها لم تر أحداً.. مع تكرار الصوت، لاحظت بإحساس بلاهة أن هناك هاتفاً داخلياً.. تقدمت إليه وتكلمت بوضوح:

ـ أنا بريندا توماسن.. من وكالة يورك.

رد عليها الصوت الأجش: أنا غريفز.. أعتقد أنك في سيارة؟

ـ طبعاً.

ـ إذن ادخلي.. سأفتح البوابات.

ـ وماذا عن الكلبين؟

ـ متى فتحت الأبواب فلن يزعجاك آنسة توماسن.

انتقلت عينا بريندا إلى الأنياب البارزة للألزاسيين.. كل ما آمله أن تكون محقاً! وتصورت وجهاً ينطبق على الصوت.. فبدا لها أن من الأفضل طبعاً أن تدير وجهة سيارتها وتعود مبتعدة عن هذا المكان وعن هذا الرجل المصر على مقابلتها. لكن طينة بريندا قاسية، إنها فتاة لا تتردد في مسيرتها أبداً.. وليس من السهل مفاجأتها ولا التأثير عليها، قد يكون

السيد غريڤز غريب الأطوار إلى حد الجنون لكن ألن يكون هذا مرحاً مسلياً؟ طبعاً سيكون مثيراً للاهتمام. إضافة إلى هذا، أصبحت الآن تشعر بفضول يجعلها تصمم أكثر أن ترى الرجل.. وستمضي قدماً إلى المقابلة.

وكأنما الكلبان يعملان على جهاز السيطرة عن بعد فقد توقفا على الفور عن النباح ووقفا مسمرين بعد أن انفتحت البوابتان الحديديتان الضخمتان من جهة اليمين.. فمرت بسيارتها، ثم أقفلتا خلفها بعد أن ابتعدت.

قادت السيارة ببطء، تنظر إلى الكلبين من المرآة أمامها.. كانا الآن يبتعدان وقد فقدا الاهتمام بالزائرة.. الزائرة؟ إنها تحس بأنها دخيلة وممتنة لحماية سيارتها لها.. وأثارت فكرة مرحها.. كيف يصل ساعي البريد؟

لا.. في مثل هذه البقاع من الريف، يصل البريد بسيارة «ڤان»... المنازل هنا قليلة جداً ومتباعدة، والطريق الداخلية إلى المنزل لوحدها تقدر بربع ساعة سيراً على الأقدام.

كانت الأراضي حول المنزل واسعة.. مع أن بريندا لم تكن قادرة على رؤية الكثير بسبب العاصفة.. كل شيء كان مفروشاً ببساط أبيض كثيف بحيث أن محتويات الحدائق من المتعذر وصفها.. على بعد خمسين متراً أمامها، برز المنزل.

كان منزلاً ريفياً أنيقاً، يعود تاريخه إلى القرن السابع عشر وفي موقع مرتفع قليلاً، وكان ضخماً.. كان كبيراً، وحسب مقاييس بريندا كبير جداً.. مع ذلك، ليس بالكبر الذي توحي به أراضيه المحيطة. كان هناك نباتات متعرشة تمتد فوق حجارته القرميدية.

وأوقفت بريندا سيارتها وهي تفكر أن الموقع كله سحري، كشيء مرسوم على بطاقة ميلاد بريدية.. وأخذ فضولها يزداد عمقاً مع مرور الدقائق.

وهي تصعد الدرجات الأربع الحجرية للمدخل الأمامي والثلج والريح

يتلاعبان بشعرها المرتب عادة، فتح السيد غريڤز الباب لها.. وعرفت أنه هو مع أنها لم تتوقع أن يدخلها بنفسه إلى منزله.. عرفت أنه هو لأنها تخيلت وجهاً للصوت الذي سمعته ولم تكن بعيدة كثيراً في تصورها.

من الصعب تخمين عمره، ربما في الخمسين أو الستين.. وجهه الزهري ضخم ومستدير، قمة رأسه لماعة صلعاء ما عدا بضع خصل تتشبث بالحياة، وما تبقى من الشعر مقصوص قصيراً جداً.. وربما كان يوماً يماثل بلونه شعر بريندا الأشقر القاتم، لكنه الآن ممزوج بالشيب.

كانت عيناه زرقاوان شاحبتان ونافذتان ومن غير تعبير كوجهه. يرتدي بذلة قديمة الطراز بنية داكنة مزدوجة الصدر سترتها كمعطف طويل وبنطلونه مثنى الساقين إلى فوق!

أجل.. هذا ما توقعته.. إنه غريب الأطوار حقاً.. وحيته برسمية..

- مساء الخير.. أنا بريندا توماسون.. ولدي موعد مع السيد غريڤز في الساعة الثالثة.

قال وهو يغلق الباب وراءها: أنا غريڤز.

كانت الريح قد نفخت في الردهة، وسمعت بريندا رنيناً خفيفاً ناعماً.. فتطلعت إلى فوق لترى ثريا ضخمة تتدلى من السقف المرتفع.

- لقد وصلت مبكرة إحدى عشر دقيقة.

الصوت فعلاً أجش لكن ليس كما بدا عبر الانتيركوم، ولم تعرف بريندا إذا كان التعليق تحذيرياً أم أنه تقديري لأنها تمكنت من الوصول أصلاً نظراً للطقس المثلج.

ارتفعت يدها اليسرى آلياً تلمس شعرها وتمد له اليمنى:

- أنا مسرورة للقائك سيد غريڤز.. أنا.. فهمت أنك طلبت خدمات سكرتارية؟ الوكالة..

وصمتت.. هذا الرجل يجعلها تشعر بعدم الراحة، مع أنها لم تستطع تحديد السبب.. ولم يصافحها بل اكتفى بالقول:

- اسمي غريڤز.. فقط غريڤز، والموعد ليس معي آنسة توماسن..

لقد كلمت الوكالة نيابة عن رب عملي.. إنه سيدي المركيز الذي يرغب في مقابلتك.. لو لحقت بي..

لم تتحرك بريندا.. سيدي المركيز؟ مسيو لو مركيز؟ رب عملها المحتمل فرنسي؟ ومركيز! ودهشت دون مجال لإنكار دهشتها، كما أنها أحست بتوتر غامض لأنها واثقة بأنها لن تقبل بالوظيفة حتى ولو عرضت عليها. مجرد ذكر «مسيو لو مركيز» ملأ رأسها بكل أنواع الأفكار الغامضة، لا شك أنه عجوز.. عجوز جداً ومعقد.. وربما لا يسمع، وله نزوات غريبة بسبب هذا. ولا شك أنه سيكتب مذكراته حول حياته كفرد من الأرستقراطية الفرنسية!

أما غريفز.. فما هو..؟ خادم العائلة القديم؟ لكنه لا يبدو خادم عائلة! ولا شك أنه قوي كالثور مع هذه البنية السميكة، وأعرض عنق رأته في حياتها.. كان يبدو كملاكم متقاعد، أو ربما رجل شرطة متقاعد.. تحري ربما.

استدار غريفز ينتظرها، فهزت بريندا نفسها لتركها خيالها يسرح كما يشاء، إنها سخيفة! مع ذلك..

ـ سيد غريفز.. أعني غريفز.. عرفت أن مخدومك كاتب. فهل يكتب سيرة حياته ربما؟

ـ لا يا آنسة.. إنه قصصي.

استدار عنها وهي ترفرف عينيها دهشة.. قصصي؟ هذا أكثر غرابة وإثارة للفضول.. إيه؟

ـ قلت إنه مركيز.. من هو بالضبط؟

نظرت إليها عيناه الزرقاوان الضعيفتان بثبات:

ـ إنه المسيو لو مركيز جان مارك دو بافندال.

وتابع سيره عبر الممر المتجه من الردهة، وكأنه غير مستعد للرد على المزيد من الأسئلة.

أخذت بريندا تهمس لنفسها: لو مركيز.. جان مارك دو بافندال..

المركيز جان..

وكأنما سيساعدها أن تعرف لماذا يبدو لها الاسم مألوفاً.. في مكان ما، في أقاصي زوايا ذهنها، كان هناك جرس يرن بصوت مرتفع.. لقد سمعت الاسم من قبل.. لكن أين؟ لا شك أن له علاقة بالكتابة طبعاً.. أم لا؟ لا.. لا.. لا تشعر أن هذا صحيح، مع أنها تعرف أن المركيز كاتب..

توقف غريفز.. وفتح باباً مشيراً إلى الداخل:

ـ لو سمحت أن تنتظري في غرفة الاستقبال آنسة توماس فسيراك المركيز في الساعة الثالثة.

إشارته إلى الوقت جعلت بريندا تبتسم.. وكانت على وشك أن تنظر في ساعتها لترى كم دقيقة بقيت للتشرف باللقاء.

أعطته معطفها وانتظرت إلى أن غادر الغرفة وأغلق الباب دونما صوت، قبل أن تبدأ باستيعاب ما حولها.

كانت بريندا قد عملت في مكاتب مهيبة.. وفي عدة مناسبات، قادها عملها إلى داخل منازل شديدة الأناقة لرجال ونساء أعمال واسعي الثراء ممن يعملون من منازلهم.. في الواقع، كان منزل أهلها مؤثثاً بذوق رفيع.. لذا لم تكن تتأثر بسهولة. لكن هذا المنزل وهذه الغرفة على الأقل، كانت شيئاً وقعت في حبه على الفور.

لم تكن أنيقة جداً ولا مبالغ فيها.. لكن محتوياتها كانت مرتبة بتفكير دقيق حتى أن أول انطباع تعطيه هو انطباع الدفء العائلي الحميم.

كان هناك أريكتان موضوعتان على شكل زاوية حادة أمام المدفأة الرخامية حيث الحطب المشتعل يهدر بصوت مرتفع. قبالة أحد الأريكتين قرب النار، مقعد مرتفع الظهر وثير ومريح المنظر. ربما هو مقعد المركيز؟ المقعد الذي يحب أن يجلس فيه؟

للأسف، لم يكن لديها وقت طويل لتتفحص كل شيء بدقة.. فقد عاد غريفز للظهور في وقت قصير جداً.. وواضح أن الساعة أصبحت الثالثة

بالضبط! لكن بريندا كانت قد لمحت كل شيء تقريباً بما فيه البيانو م
خشب الماهوغوني، الطاولة الصغيرة التي تقف عليها نسخة رائعة م
تمثال لـ «رودن».

وفكرت: فتش عن المرأة.. هذه ليست غرفة جلوس رجل عجوز يعيش وحده. هناك لمسة امرأة مؤكدة هنا. امرأة رفيعة النسب والتربية له ذوق ممتاز وحسن تمييز.

أجل إنها غرفة جميلة.. مرحبة مليئة بالجو الدافىء.. إنها كذلك.. شيء آخر مؤكد.. وطافت عينا بريندا مرة أخرى حولها.. فيها شيء م النظام له علاقة بترتيب الأشياء ووضعها في مكانها الصحيح.. هناك توازن وترتيب بالطريقة التي وضع فيها كل شيء.. المصابيح، الأغراض الفنية، اللوحات، حتى منافض السكائر.. كل شيء في مكانه الصحيح..

ـ آنسة توماسن، لو سمحت أن تأتي معي فالمسيو لو مركيز سيراك في المكتبة!

لحقت به إلى الممر مضطربة الأعصاب. كم هي سخيفة! قد تفتقد للثقة بنفسها كامرأة، لكنها بكل تأكيد تستطيع السيطرة على مقابلة عمل وعلى متطلبات مهنتها!

تعلقت بهذه الفكرة.. ثم وقعت أنظارها على المركيز جان جاك دو بافيندال.. كان يجلس وراء طاولة ضخمة في مواجهتها، وظهره إلى النافذة، وهي تلحق غريفز إلى الغرفة، أجبرت نفسها على الاستمرار في الحركة لا أن تقف مسمرة تفغر فمها وتحدق حولها.

كل ما خبرته ورأته حتى الآن لا يقارن بالصدمة التي واجهتها وجهاً لوجه مع المركيز..

القول إنه وسيم ليس كافياً لوصفه.. إنه مذهل، جذاب بوجه جميل وكأنه منحوت، وبشرته سمراء، شعره جامح قليلاً.. شعر كثيف مستقيم أسود كالليل لكن مع لطختين خفيفتين تحت صدغيه تبدوان وكأنهما لمسة من مسحوق فضي.. شيب مبكر، لا شك في هذا، فالمركيز لا يمكن أن

يكون في أواخر الثلاثين ولا حتى في وسطها.

كانت كنزة بياقة «بولو» سوداء بسيطة تضيف سواداً إلى مظهره الدراماتيكي.. الصوف الكشميري الناعم يلتصق بجسمه النحيل، المليء بالعضلات.. كتفاه عريضتان، وكان يجلس دون أن يبتسم في وضعية ترقب وانتظار.. يداه مضمومتان معاً باسترخاء فوق الطاولة، وأصابعه الطويلة متشابكة.

كان جذاباً بشكل غير عادي ومميزاً.. اختطفت صدمة مواجهته وجهاً لوجه أنفاس بريندا.. عرفت على الفور أنها في حضرة رجل قوي.. رجل لا يرحم.. فهناك قساوة حول فمه الرقيق الشفتين.. الأمر الذي لم يترك في نفسها أدنى شك أنه رجل لن يقبل كلاماً سخيفاً.. رجل يتوقع ويحصل على الأفضل في الحياة.

* * *

٢ ـ جرس الإنذار

تحركت عينان سوداوان كجناح غراب فوق بريندا وهي تدخل إلى المكتبة. لم يكن يواجهها عيناً بعين، بل كان يقيمها بصورة عامة. وبدرت فكرة سخيفة لبريندا، أمنية محمومة في أن تكون امرأة جميلة.. أو حلوة.. أو جذابة على الأقل. أوه.. لماذا لم تضع قليلاً من الزينة على وجهها لهذه المقابلة؟ حتى ثقتها المهنية بنفسها أخذت تهجرها الآن.

كانت وغريفز واقفان، داخل الغرفة. وسمعت صوت غريفز الأجش يقول:

ـ مسيو لو ماركيز.. الآنسة توماسن.

وأشار إليها نحو مقعدين من الجلد البني الفاخر بينهما طاولة قهوة مستديرة تواجهان الطاولة على بعد أمتار قليلة منها.. وأحست بابتهاج للمسافة بينها وبينه فمعدتها كانت تتقلص بتوتر.. هناك شيء غامض مألوف في هذا وتعرف أنها لم تشعر به من قبل.. لا.. فكلمة مألوف قوية جداً على ما تشعر به.

جلست مع انحناءة تحية نحوه، تحس بحاجة إلى الضغط على نفسها كي لا تحدق به.. ولحسن الحظ لم يفضح صوتها أي شيء من توترها وهي تحييه: مسيو لو ماركيز..

كان غريفز لا يزال واقفاً وهي تجلس.. ثم فعل شيئاً صدم بريندا لغرابته، فقد التقط حقيبة يدها من على الطاولة الصغيرة حيث وضعتها

ودسها تحت الطاولة. نظرت إليه متعجبة، تعتقد أن هذا مجرد مبالغة في الترتيب.. لكن وجه غريفز الزهري الضخم بقي دون تعبير.

لم يتكلم المركيز جان مارك دوباڤيندال إلا بعد أن خرج غريفز من الغرفة.. قال:

ـ آنسة توماسن.. هناك شيئان لا أحبهما أبداً.. الكفاءة الوسط والتردد.

اتسعت عينا بريندا.. كان صوته خافتاً، واللكنة ظاهرة قليلاً.. كان الصوت عميقاً هادئاً، لكن بألوان متفاوتة..

لم يخدعها الصوت.. الصوت كان يتعمد السيطرة.. بلكنته الخفيفة وعمقه.. إنه جذاب دون شك، لكنه بالإمكان أن يخبيء إذا أراد صاحبه نبرات المشاعر.. نظرت إليه مسحورة وخائفة قليلاً. كل ما استطاعت التفكير به في تلك اللحظات هو أنها لن تحب أن تبقى قرب هذا الرجل حين يفقد أعصابه.

لم تعرف بماذا ترد.. فاجأتها ملاحظته.. فليس هكذا بكل تأكيد تبدأ مقابلات العمل عادة! إنه يقرر أمراً واقعاً.. فهل يتوقع الرد؟

تابع:

ـ الكفاءة والدقة أمران أحبهما على أي حال، ويبدو أن لديك كلا المؤهلين بالنظر إلى دقة موعد وصولك، خاصة وسط العاصفة الثلجية.

أدهشها أنه وهو يتكلم إليها لم يلتق بعينيها مع أنه كان ينظر إليها.. في أشخاص آخرين، ردة فعلها على هذا هو الارتياب لأنه دليل على إخفاء شيء ما.. لكنها لم تستطع التفكير هكذا بالنسبة إلى المركيز.. إنه مباشر وصريح في كلامه، ولو كان لديه شيء يخفيه فهو بكل تأكيد شيء لا علاقة له بالمقابلة!

ـ قيادتي كفوءة.. أجل.. والدقة هي من أدب الملوك.. وأنا دائماً دقيقة في المواعيد مسيو لو مركيز.. وأتوقع ذات الأمر من الناس.. صحيح أنني لا أحصل عليها دائماً لكنني أتوقعها باستمرار أما الكفاءة

الوسط والتردد فستجد أن كلا هاتين الخصلتين ليستا من طبعي بالنسـ لعملي.

ـ لا شك عندي أن عملك سيكون من أعلى المستويات، أنت تعملي لوكالة بورك ولا حاجة لأن تقول المزيد عن المؤهلات.. لكنك لست أو من يرسلون لهذا العمل، ولست الثانية.. أنت الخامسة آنسة توماسن. الخامسة.. مهمة إيجاد سكرتيرة لي أصبحت تستهلك وقتاً مني وتصيبـ بالضجر أكثر مما توقعت.

أحست بريندا بارتباك كبير. هذا الرجل الأرستقراطي المليـ بالحيوية.. له.. له.. حضور قوي.. بحيث كان من الصعب عليها تركز تفكيرها.. إنها ليست مرتبكة لأنه مركيز، بل بسبب القوة والسلطـ الخارقة التي تنضح منه.. كانت بالكاد تعي ما يحيط بها، ولا تعي طقطـ النار وهدير ألسنتها، ولا الجدران المكتظة بالكتب المصفوفة من الأرضـ حتى السقف.

إخباره لها أنه رفض أربعة أشخاص من وكالة بورك، أمر لم تستطع تفهمه.. ربما هم رفضوه؟ هذا ممكن جداً! فالمركيز ليس شخصاً السهل الاتفاق معه.. لكن.. أوه.. أليس في هذا شيء من التحدي وهي فعلاً بحاجة إلى تحد لتواجهه.

خلف هذه الأفكار، وفي أعماق عقلها اللاواعي، كان لا زال هنا ذلك الإحساس الملحّ بأن المركيز جان مارك دوبافندال معروف جيداً وليس فقط في الكتابة. كانت تتشوق إلى الجزء من المقابلة التي سيتكلـ فيه عن عمله.. ربما ساعتها سيتوضح لها كل شيء.. إنه روائي كما قـ غريفز، لكن هناك شيء مؤكد: بريندا لم تقرأ من أعماله شيئاً.. إنها قار قصص مواظبة، وكان بالإمكان أن تتذكر.. إلا إذا كان يستخدم اسـ مستعاراً.

لو أنها تستطيع أن تبتعد لتفكر بالأمور جيداً.. وتستوعب الصدمة.. صدمة هذا اللقاء.. ثم تعود وتبدأ هذه المقابلة من جديد!

قالت وقد احمرّت حتى جذورها وهي تدرك أنها كانت تحدق به.

ـ أعذرني، فأنا لست مربوطة اللسان في العادة، لكنني لا أفهمك.. بكل احترام مسيو لو مركيز، إذا كنت متأكداً أن عملي سيكون مرضياً فلماذا تجد ضرورة لهذا اللقاء؟ وماذا حصل مع الآخرين من..

قاطعها، تحس بتوتره:

ـ هذا لأنني دقيق جداً مع من أعمل معهم.. فأنا سأحجز خدماتك لستة أشهر، أكثر أو أقل بأسبوعين.. عدا عن هذا ستعيشين تحت سقف منزلي.. ومن الضروري أن أكون حذراً مع أي شخص ينتقل للسكن معي.

نظرت بريندا إلى يديها، وهي تقاوم كي لا تظهر انزعاجها.. إنها بطيئة الغضب لكن ما تسمعه نجح في إغضابها.. يا إلهي! ستعطي بيني صباح الاثنين رأيها بكل صراحة! لماذا لم تقل لها إنه عمل مع إقامة؟ صحيح أن هذا أمر غير مهم لها، وهي حرّة في أن تفعل ما تشاء، لكن هذه المقابلة كانت ستنجح أكثر لو أنها كانت تعرف مطالب المركيز مسبقاً.. أو حتى عن وجوده! كل ما تعرفه أن مقابلتها هي مع السيد غريفز.. اللعنة على بيني وعجلتها لتسافر إلى عطلة نهاية الأسبوع.. نقص المعلومات لديها كان يجعلها تبدو حمقاء! وهي الآن تريد هذه المهمة، تريد العمل مع هذا الرجل المثير، المتحدي، أكثر مما أرادت أي شيء منذ زمن طويل.. لقد صممت على هذا لحظة دخلت المكتبة.

منعها ولاؤها للوكالة من أن تقول له إنها لم تحصل على المعلومات الكافية عنه أو عن الوظيفة، خاصة أنه لا يبدو راضياً عن الوكالة كما هو الحال!.. هكذا بدأت تتكلم وبسرعة:

ـ أجل.. أفهم هذا.. لكنني أؤكد لك أمرين، بإمكاني التكيف مع ما يحيط بي ومع سرعة رئيسي في عمله.. منزلك جميل جداً مما رأيته منه حتى الآن وسأحترمه.. إضافة إلى واقع أنك تتمتع كما هو واضح بالحياة الهادئة.. وتركز على خلوتك.

كانت نظرة تركيزه قوية حتى أنها جعلت بريندا أكثر ارتباكاً.. كانت

تعي كل كلمة يقولها، تعي قبحها، وتعي في الواقع أنها على وشك أن تكون الرفض الخامس له.

مما لاحظته، هذا الرجل يتمتع بأن تحيط به الأشياء التي تسر العين.. وهذا شيء بعيد عن بريندا.. ولا هي تملك تلك الشخصية التي يمكن أن تغطي قبحها.

حين نهض المركيز من وراء منضدته، ظنت بريندا أن هذه المقابلة القصيرة الرسمية قد انتهت.. لكنها ذهلت لعرضه شيئاً تشربه.

- أتفضلين شيئاً ساخناً آنسة توماسن؟ قليل من الشاي ربما؟

- أوه.. شكراً لك.. هل هذا إبريق قهوة كهربائي هناك؟

- أجل.

- إذن سأشرب القهوة إذا أمكن.. مجرد فنجان صغير.

ساعد هذا بريندا على الاسترخاء قليلاً.. لكن خطواته، حركاته، أبقتها نصف منومة. من هو هذا الرجل؟ أين شاهدته من قبل؟ على التلفزيون؟ في أي مكان؟

راقبته يقف وظهره نصف مستدير إليها.. إنه طويل، نحيل، واضح أنه يحافظ على نفسه في حالة صحية مكتملة، فليس هناك ذرة لحم زائد في عضلات جسده العريض القوي.

صب فنجانين من القهوة بحركات دقيقة متعمدة، وكأنه يفكر بكل شيء قبل أن يتحرك.. وهذا على الأرجح ما يفعله. لقد قال لها بنفسه إنه رجل حذر.. وهي تعترف بثقته المتفوقة في نفسه، وتحسده عليها. هناك هالة من الهدوء التام والسيطرة حوله.. بدا وكأن من المستحيل إزعاجه.. مع ذلك.. مع ذلك..

وهو يسير نحوها والفنجانان في يده.. أحست بذات الإحساس المربك الذي أحسته وهي تسجل القسوة في وضعية فمه.. هناك قوة مرتبطة به.. جعلت بريندا تفكر بفهد أسود يسير بصمت، وكل حواسه مستيقظة، يراقب وينتظر.

أمام خيبة أملها، وضع الفنجانين على الطاولة وجلس إلى جانبها.. وهذا ما جعلها قلقة، مذهولة، متأثرة، ومنزعجة. من هذا القرب، رأت ندبة جرح لا يزيد عرضها عن عرض شعرة تمتد من لطخة الشعر الذهبية من فوده الأيمن حتى الحد الخارجي لحاجبه.. لا يبدو أنه جرح من أيام طفولته لكنه قديم بما يكفي لأن يكون يكاد يختفي.. من أجرى له جراحة التقطيب كان سيداً في مهنته.

نظر إليها الآن مباشرة.. تشابكت العينان السوداوان مع عينيها بوضوح نافذ أحست معه أنه قادر على قراءة أفكارها.. وأن يرى أعماق روحها.. وتمكنت أن تبتسم متسائلة ماذا يمكن أن يجتذب ابتسامة منه.

سأل:

- هل أخبرتك الوكالة شيئاً عن روتين عملي؟ ساعات العمل وما إلى ذلك؟

- أوه.. لا.. لم يدخلوا معي بالتفاصيل الدقيقة.

ارتشف شيئاً من قهوته، ثم:

- إذن دعيني أخبرك قبل أن تتعمق بالبحث أكثر.. أنا أبدأ الإملاء في السابعة صباحاً.. لذا أحتاج إلى من هو على استعداد للإقامة معي.. أحب العمل في الصباح الباكر، فهو أفضل جزء من اليوم كله. في العادة أنهي الإملاء في الحادية عشرة. غريغز يقدم الغداء في الواحدة والعشاء في الثامنة.. ولا أهتم متى يطبع إملاء الصباح، فهذا عائد إليك، بإمكانك إبقاء بعد الظهر حراً دون عمل والطبع في المساء، أو العكس. أنا أعمل أيام السبت لكنني لا أعمل في الآحاد. كل ما أطلبه أن يكون إملاء الصباح السابق مطبوعاً في الصباح التالي. وسيبقى لك بعد ظهر السبت ويوم الأحد، اعتماداً على ما تختارين أن تفعليه.

هزت بريندا رأسها وسألت:

- كم عدد الموظفين المقيمين هنا؟

- غريغز لوحده.. فأنا أعيش وحيداً عداه.. أوظف عدة جنائنيين من

السكان المحليين، وهذا كل شيء. غريفز يدير المنزل.. وستكون لك حرية الانتقال أينما شئت فيه، شريطة أن تحترمي خصوصياتي.. وأظنك فهمت حتى الآن أنني ناسك نوعاً ما.. أليس كذلك آنسة توماسن؟

كان صوته، لكنته الخفيفة، متعة للسمع.. وهو يلفظ اسمها «توماسون».

زاد إحساسها بالغموض حول هذا الرجل وتاقت أن تسأله عن مؤلفاته.. لكن الوقت مبكر جداً لهذا.. في البداية يرغب أن يتأكد أنها مستعدة للعمل في ساعات العمل الغريبة تلك.. حسن جداً، لا فارق لديها في أية ساعات تعمل.. وستبقى قادرة على زيارة دان وولديه في نهاية الأسبوع.

قال:

- ترددك يوحي بالكثير، هل أفهم منه أنك لست مهتمة بالعمل؟

- أبداً! أنا آسفة، ما عدا أن كلمة «ناسك» ليست الكلمة التي أختارها لوصفك.. أفضل القول إنك تختار أن تعيش بهدوء، وإن خصوصياتك لها الأولوية الأهم.

تحركت زوايا فمه قليلاً كوعد بابتسامة لم تصل مرحلة البداية:

- حقاً؟ ألا يعجبك ما توحيه كلمة ناسك؟

نظرت إليه ثم أبعدت عينيها.. يا له من لغز مبهم! هناك طبقات عديدة في شخصيته.. ككاتب يجب أن يكون دقيقاً في اختيار كلماته.. وكلمة ناسك لم يخترها صدفة. لكنها لم ترغب أن تفكر به «كناسك» فهو ليس بالرجل المسن المحني الساقين الذي تصورته في البداية.. بل هو بعيد جداً عن هذا! إنه نشيط، وحيوي و.. أوه.. ستكون خسارة إذا لم تقع عيون العالم عليه أبداً.. عيون النساء على الأقل!

أجابت بجرأة وصدق: بالنسبة لك.. أجل.

سادت لحظات صمت.. ثم رفع فنجان قهوته وارتشف ما تبقى دفعة واحدة.. ثم قال:

- أخبريني مدموزيل.. هل أنت من النوع المتفائل أم المتشائم؟

لم تتردد:

- لا هذا ولا ذاك.. أنا واقعية.

- هل هذا صحيح؟ أخبريني عن نفسك.

كان في صوته دليل خفيف على التسلية، لكن دون وعد بابتسامة..

لقد بدأت تفهمه... إنه رب عمل بعيد النظر لكنه ليس بالرجل العادي.. لا يريد اسمها، رتبتها، أو رقمها، كل ما يريده أن يعرف من هي، كيف تفكر، ما هي نظرتها إلى الحياة.. أخبريني عن نفسك.. يا له من طلب رهيب، في وقت هي فتاة عادية بسيطة، متوسطة الحال.. لا شيء في حياتها يثير الاهتمام ولا في شخصيتها.

أعطته تفصيلاً مختصراً مع علمها أنه لن يكفيه:

- أنا بريندا توماسن.. في الثالثة والعشرين من عمري، تربيت في الريف، لي أخ وحيد أكبر مني بكثير.. وأعيش الآن في بادنتغتون، لندن، في شقتي الخاصة.

كانت الغرفة تزداد ظلاماً مع تلاشي ضوء بعد الظهر. وتمنت لو يبتعد المركيز عنها ويعود وراء منضدته. قربه صعب التعامل معه، وعلى هذا الضوء هناك شيء شرير حوله.

- أنت لم تمسي قهوتك آنسة توماسن.. وإذا لم تسترخي قليلاً فلن نصل إلى شيء.

بالرغم من صوته الهادىء المخملي، عرفت أنه متوتر.. وصمت..

فتساءلت بريندا لماذا لم يقل لها وداعاً في التو والحال.

- قولي لي ماذا تفعلين في الأمسيات؟

- أقرأ كثيراً.

- أليس لديك التزامات؟ خطيب، صديق، قد يتذمر لأنك ستبقين عالقة في الريف طوال الأسبوع؟

- لا.

- متى تخرجين؟ في نهاية الأسبوع؟ ماذا تفعلين للتسلية؟

- إذا لم أذهب إلى بيت أخي مباشرة بعد العمل، أخرج أيام الجمعة مساء.

- وماذا تفعلين؟

- أذهب إلى المسرح. أفضل الباليه أو الأوبرا. إنها متعتي الوحيدة بعد أسبوع عمل شاق.

- متعتك؟ أيعني هذا أنك تذهبين لوحدك؟

تحركت بارتباك، تجبر نفسها كي لا تحيط ساقيها بذراعيها، فلو عرف المركيز شيئاً عن لغة الجسد لعرف أنها كانت ترد على سؤاله بالرغم منها. وهذا أمر سخيف منها لأنه لا يسأل أسئلة شخصية جداً. لكن سيكون الاعتراف صعباً أن تتركه يعرف أنها في أكثر الأحيان تكون وحيدة في سهراتها، وهذا يوحي بأن لا صديق لها بل لا أصدقاء أبداً. حتى صديقاتها أصبح معظمهن متزوجاً الآن، عدا عن كاتلين أقرب صديقة لها. لقد عرفتها عندما بدأت العمل في الوكالة وتصادقتا منذ البداية. لكن المشكلة أن كاتلين خطبت مؤخراً ولم تعد ترغب في الخروج معها كثيراً لأنها توفر المال لدفع مقدم شراء منزل.

تجاوزت السؤال وتطوعت بمعلومات أخرى طمعاً أن يقود هذا أسئلته في اتجاه آخر.

- أنا أزور أخي كل أسبوعين. إنه.. أرمل، ويعيش مع ولديه في «سوراي»، وأنا في الواقع قدمت من هناك اليوم.

لكن المركيز لم يكن من السهل إلهاؤه:

- وماذا عن الرقص. النوادي الليلية؟. هذا لا يبدو مناسباً آنسة توماسن. ها أنت امرأة شابة تعيش في أكثر المدن إثارة في العالم عدا باريس. فلماذا لا تتمتعين بحياتك؟

الآن أصبحت أسئلته شخصية جداً. وانزعجت قليلاً. أم أنه يتعمد القسوة؟ يستطيع أن يرى بنفسه أنها ليست جميلة وليست من الفتيات

اللواتي تحجز أمسياتهن مسبقاً.

أخفضت عينيها بعيداً عن نظرته الثابتة، لماذا لا تنهي هذه المقابلة، الاستجواب المعذب، وعلى الفور؟

لكنها لم تفعل.. لم تستطع حتى الرد على نفسها.. والتقطت فنجانها وابتلعت منه رشفة كبيرة.. انتظر المركيز بصبر وهي تشرق بالسائل الساخن وتسعل، وتحس أنها غبية.

سأل أخيراً:

- لماذا تنقصك الثقة بالنفس هكذا؟

ثم لوح بذراعه:

- لا بأس.. أخبريني هل أنت شديدة الاحتشام وتصدمين بسهولة؟

أدركت أنه كان يوقع بها، يحاول أن يكتشف أي نوع من الأشخاص هي.. لكنها لم تجد مبرراً لسؤاله الأخير.

يجب أن ترحل في الحال.. تعرف هذا.. يجب أن تقول له إنها غيرت رأيها، لكن هذا لن يكون صحيحاً، لقد أصبح اهتمامها ليس في العمل بقدر الرجل نفسه.. إنها لا تحتاج إلى هذا العمل.. لا تحتاجه، لكنها تريده.. إنها مأسورة بما لا يمكن وصفه سوى بالجاذبية المطلقة.. والسحر ينمو وينمو.. من اتجاه أسئلته الغريبة كانت تعرف بضع أشياء عنه كذلك، إنها تحصل على فهم محدد لشخصية الرجل.. وهناك الكثير بعد الكثير.. وتعرف هذا بالتأكيد، كما هي متأكدة من جرس التحذير الذي يستمر بالرنين في رأسها.

أخذت نفساً عميقاً والتقت بنظرته وهي تتكلم:

- بدأت أفهمك مسيو لو مركيز.. أنت تريد أن تطمئن إلى أنني لن أضجر من وجودي هنا.. ولك تأكيدي.. لن يكون هناك تراجع، ولن تضطر إلى تغيير سكرتيرك، ولسوف ألتزم بالمهمة هذه حتى النهاية.. قلت.. ستة أشهر.. هذا بالتقريب ما سيلزم لإنهاء مؤلفك.. أترى.. فكرة العيش في الريف تروقني كثيراً.. الأراضي التابعة

لمنزلك عظيمة دون شك.. في الوقت الحاضر تبدو وكأنها صورة على بطاقة ميلاد بريدية. شيء غير حقيقي، وجميل.. وسأتمتع بالسير في هذه الأراضي في وقت الفراغ.. استكشفها وأراقبها تتغير مع الفصول..

تلاشى صوتها لرؤيتها نظرة التركيز الشديد التي استقرت على وجهه، كما حصل قبل قليل.. وما أرادت قوله تالياً أصبح صعباً:

ـ أنا.. أنت.. تستطيع أن ترى بنفسك أنني لست من النوع الفاتن أو المتقلب.. ولا شيء في لندن، على شكل رقص، أو نوادي ليلية، أو.. رجال.. سأشتاق إليه، فأنا مثلك.. أتمتع بحياة الهدوء. أدرك أنك كنت تمتحنني، تحاول رسم صورة لي. لكن هذا يجعلني متوترة.. وكل ما تريد معرفته في الواقع ما إذا كان بإمكانك الاعتماد عليّ.. حسناً، وكالتي يمكنها دعم ليس قدراتي فقط بل كذلك استقامتي وأهليتي بالثقة. بصراحة لا أجد معنى لسؤالك الأخير.. لكنني سأرد عليه.. لا، لست متزمتة وبعد عملي ككاتبة اختزال لسنتين في المحكمة، لم يعد من السهل أن أصدم بشيء.. ولا يدهشني ما قد يفعله الناس.

صمتت فجأة وقد أدركت أن خطبتها الصغيرة قد تحولت عن مسارها.. وهذا نتيجة للتوتر والضغط العصبي اللذين أحست بهما. وتبع صمتها صمت طويل، نظرت خلاله من النافذة إلى السماء التي تزداد ظلمة بسرعة.. انخفضت سرعة الريح كثيراً، لكن الثلج لا زال يتساقط.. وبدا أن دهراً مرّ قبل أن يتكلم المركيز:

ـ أحسنت.. لكنني أؤكد لك أن لدي أسباب لطرح هذه الأسئلة.. كلها.. أما السؤال الأخير، فسببه أن كتبي غير متحفظة كثيراً بعض الأحيان.. فإذا كنت من النساء اللواتي لا يطقن سماع شيء عن الدم والرصاص والعنف في أبشع أشكاله.. فلن يروق العمل لك!

دم ورصاص؟.. نظرت إلى فمه.. عنف في أبشع أشكاله؟ طافت عيناها فوق وجهه بسرعة. في النور المتلاشي بدت بشرته أكثر دكنة، تعطيه نظرة شريرة.. إنه وجه قوي، نحيل، وجميل دون مجال للإنكار،

وجه رجل عميق غامض.

سألت بهدوء:

ـ من أنت؟ واضح أنك تستخدم اسماً مستعاراً مسيو لو ماركيز. ألم نصل بعد إلى المرحلة التي أنت مستعد فيها لإخباري عن الاسم؟

ـ بلى.. وصلنا.. إنه سكوت ستيڤن.

ووقف.. طيف طويل قاتم يتجه بصمت نحو منضدته الفخمة الأثرية.

سكوت ستيڤن.. لقد سمعت به طبعاً.. الجميع تقريباً يعرف الاسم. لقد كتب عدة قصص.. وآخر اثنتين كانتا قنبلتين قويتي الانفجار.. حققتا أفضل المبيعات في العالم «بست سيلرز».. صحيح أنها لم تقرأ منها شيئاً لأنها ليست من طرازها، لكنها كانت ترى تلك الكتب في منصات العرض في محلات بيع الكتب التي تقضي فيها ساعات كثيرة.

التقط المركيز علبة سكائر فضية: أترغبين في سيكارة؟

ـ لا شكراً لك.

ـ ألا تدخنين؟

ـ في مناسبات قليلة. لكنني لا أريد الآن.. شكراً.

أن يكون هذا الرجل هو سكوت ستيڤن الكاتب الشهير عالمياً، مسألة أصبحت مفهومة.. لكن الغموض الذي كانت تقاومه بربندا منذ سمعت اسمه الحقيقي لم يحل بعد.. لم يكن هناك شيء من الرقة أو الإحساس في كتاباته.. لا شك أن نوعاً من الغضب المكبوت أطلق العنان لكتاباته العنيفة.. أجل كل شيء أصبح الآن مفهوماً.. إذن لماذا لا يتوقف ذلك الجرس عن الرنين؟ لماذا تعتقد أنه لا زال هناك هوية أخرى لهذا الرجل؟

قاطع الصوت الناعم المخادع أفكارها:

ـ هل ستبقيني منتظراً طوال اليوم؟ أتوقع منك نوعاً من التعليق.

ـ أوه! أجل.. أنا آسفة.. أخشى أن لا أكون قد قرأت مؤلفاتك..

لكنني أعرف طبيعتها.

هز جان مارك دوبافيندال كتفيه وكأنه لا يهتم البتة:

- أريد أن أعرف ما إذا كنت ستكونين سعيدة في العمل بمثل هذ
المواد.

جاء دورها لتهز كتفيها بعدم اكتراث:

- ولِمَ لا؟ أعني أنها قصص خيالية، أليست كذلك؟

أطلق نفساً طويلاً بطيئاً.. أهو مرتاح لأنه وجد أخيراً السكرتير الكفؤة التي يمكن أن يعتمد عليها، أهو نافد الصبر؟ ألا يوافق عل تعليقها؟

- هذا إذا كان هناك خيال فعلاً.. آنسة توماسن، هناك أمران أود أ أوضحهما قبل أن يتخذ كل منا قراره. أنا بحاجة لمن يبدأ العمل يو الاثنين مباشرة..

تقدم إلى المدفأة وارتاحت بريندا لابتعادها عن نظرته الثاقبة، وطاف عيناها لأول مرة في المكتبة. هذه الغرفة تتحدث عن الثراء.. بسجادتها الفارسية الحمراء الداكنة، وأثاثها وكتبها.. هناك الكثير من الكتب! مئات من الكتب الجميلة!

- .. كدت أصل إلى نهاية الفصل الأول من روايتي الحالية ثم توقفت عدة أيام وأنا أحاول إيجاد سكرتيرة جديدة، وهذا أمر محبط وسيء بالنسب للكتاب. أفهم أنك حرة في أن..

تابع المركيز كلامه لكن بريندا توقفت عن الإصغاء. أصبح تفكيرها فجأة مشوشاً وعيناها متسعتان وهما تستقران على شيء حرك ذكرى مراوغة.. فوق المدفئة، حيث كان المركيز يقف، لوحة أصلية رأتها من قبل.. مرة واحدة.. ومنذ زمن طويل.

من هذه المسافة، كان توقيع الفنان غير واضح، لكنها لم تكن بحاجة أن تقرأه لأنها تعرف الرسام، أسلوبه لا يمكن الخطأ به.. فريد من نوعه، مثير للإعجاب. واسم الفنان مارك.

مارك.. أوه بالطبع! بالطبع!

التصق نظرها المذهول باللوحة بينما الذكريات تتسارع في رأسها وكأنها قطع أحجية. المقالة التي رأتها في المجلة.. المعلومات التي أعطتها.. صورته.. عدة صور!

في جزء من الثانية توضح كل شيء، وكونت القطع صورة كاملة.. وذكرى مؤلمة.. شهقت وهي تقف ببطء عن كرسيها، وقالت بصوت يكاد يكون أدنى من الهمس:

- يا إلهي!.. أنت أعمى!

ثم تخبطت تدرك كم أنها كانت فاقدة للباقة.. كل ما كانت تريده أن يعرف أنها تعرفت عليه وأنها معجبة جداً بأعماله:

- أنا آسفة.. مسيو لو مركيز.. الأمر أنني معجبة جداً بأعمالك ولديّ نسخة طبق الأصل عن لوحتك الشهيرة «بستان في فرساي».. وأردت فقط أن أقول..

وتلاشى صوتها.. لقد كانت غير لبقة، حمقاء خرقاء.. اللوحة التي أشارت إليها هي آخر لوحة أكملها مارك قبل أن تصيبه المأساة التي حرمته نظره.. وحرمت العالم من فنان كبير.

غاصت بريندا مجدداً في كرسيها، ووجهها يزداد احمراراً بالحرج، مع عودة ذكريات أخرى كانت تفكر بأشياء قالتها، أشياء لن تحلم أبداً بقولها لو أدركت أنه أعمى!

استدار المركيز عنها.. كانت عقد أصابع يديه بيضاء وهي ممسكة برف المدفئة في سعي للسيطرة على نفسه.. وهذا لم يحدث أبداً من قبل.. الغرباء الآخرون، ممن قابلهم، لم يتعرفوا إليه.. ولا على لوحاته.. وهو من ظن نفسه آمناً من هذا النوع من التطفل.

إنه غبي.. غبي أن يخاطر بأن يتعرف عليه أحد.. ذلك التعرف الذي لن يأتي سوى بالألم.. لكن لن يحدث هذا مرة أخرى! الليلة سيعري المنزل من لوحاته.. كلها.

غبي.. أحمق! لو أنه فقط يستطيع أن يفعل هذا! لكن المشكلة كانت هذه الفتاة.. من المؤسف جداً تركها تذهب من يده.. هذه الفتاة التي تتحدث عن بطاقات الميلاد البريدية وعن مراقبة تغيير الفصول.. لكن يجب أن يتركها ترحل.. لقد تعرفت إليه وكانت معجبة به. ولا يستطيع تحمل الموقف ولا الشفقة التي ستشمل دون شك عملهما معاً.. يجب أن يتخلص منها.. الآن.

تساءلت بريندا لماذا لم يقل لها من هو.. وتساءلت لماذا لم يخبرها عن عماه على الأقل.. بل الواقع لماذا لم ترَ هذا بنفسها؟ لكنها أدركت من مراقبتها له بضعة أمور..

كان تعرفها عليه كرسام آخر شيء أراده. فهو لم يستدر عنها ساعة ذكرت عماه، بل ما إن ذكرت فنه. وهذا ما أخبرها كل ما تحتاج أن تعرفه: حياته كرسام لا يجب أن تُذكر أمامه مرة أخرى.

عماه أمر تغلب عليه منذ زمن بعيد، ولا حاجة لأن تشعر بالحرج للأشياء التي قالتها.. في الواقع، هو أرادها أن تكون نفسها وأن تتصرف وتتكلم بشكل طبيعي.

أكانت ستحصل على هذا العمل أم لا، فهي ببساطة يجب أن تنهي هذه المقابلة بملاحظة صائبة..

أخذت نفساً عميقاً تهدىء فيه نفسها، وتكلمت بطريقة عملية، صوتها لا يُظهر أي أثر للعاطفة:

ـ آسفة لدخولي في أمور جانبية. فبعد أن أظهرت معرفتي بمارك، أستطيع الآن نسيان أمره وأتابع البحث في العمل بين يدينا.. لكن المكان أصبح مظلماً هنا.. وبما أنني أدرك أن لا فرق لهذا عندك، فسيكون أكثر راحة لي لو أنك أضأت المصباح لننهي المقابلة.

استدار المركيز ببطء ليواجهها، فأحست أن قلبها قفز إلى فمها.. فهل ذهبت بعيداً في جرأتها؟

فقد جان مارك دوباقندال القدرة على الكلام مؤقتاً.. ثم ابتسم

وتحولت البسمة إلى ضحكة غيرت معالم وجهه لتطرد عنه كل الظلال، تنير عينيه السوداوين وتكشف عن أسنان بيضاء قوية.. وعلقت أنفاس بريندا هذه المرة في حلقها.. كان هذا وكأنما الشمس برزت فجأة من وراء غيمة سوداء في يوم من أيام منتصف الصيف وقال:

ـ المقابلة انتهت.. والعمل لك.

* * *

٣ ـ يقرأ ابتسامتها

كانت يدا بريندا لا تزالان ترتجفان قليلاً وهي تصب الماء المغلي في إبريق الشاي الصغير. يجب أن تتصل بدان فوراً وتشرح له أنها لا تستطيع العودة إلى «سوراي». يجب أن تنهي الغسيل وتنظف الشقة، وتعطي الزهور التي اشترتها بالأمس للسيدة العجوز التي تعيش في آخر الرواق.. في الغد ستنتقل إلى «سبلينا هاوس» وهناك الكثير من الأمور تحتاج إلى عنايتها.

لكن، بدلاً من أن تتابع عملها، جلست قرب المدفئة في غرفة الجلوس، لا تستطيع أن تتصل بدان الآن.. ولا تستطيع فعل شيء قبل أن ترتب مشاعرها وأفكارها التي تكونت بعد لقائها مع المركيز جان مارك دوباقندال.. سكوت ستيفن الكاتب.. ومارك الرسام.

يا له من رجل غير عادي وفاتن! هذا ما ظنته منذ البداية، وقبل أن تعرف اسمه المستعار وقبل أن تعرف من هو حقاً.. فمن هو حقاً؟ هزت رأسها، لا زالت مرتبكة لأحداث اليوم. إنه رجل له أوجه كثيرة.. في الوقت الحاضر لا تستطيع قول شيء غير هذا.. بكل بساطة لا تستطيع مقارنة الرجل الذي قابلته بالفنان الذي أبدع تلك اللوحات الجميلة الرومانسية.

في تقييمها له خلال المقابلة ظنته دون إحساس. كم هي مخطئة! اتجهت عيناها إلى ما قد تكون أكثر ممتلكاتها مدعاة للفخر.. نسخة طبق

الأصل عن آخر لوحة له، كانت منظراً لبستان في منتصف الصيف وشابان صغيران يسيران يداً بيد عبر الأشجار. الفتاة ترتدي فستاناً بلون أزرق وقبعة عريضة.. أما الشاب فكان يرتدي ثياباً بيضاء والابتسامة على وجهه، النظرة في عينيه إعلان صامت عن الحب الذي يشعر به لرفيقته.

هل تمثل هذه الصورة مارك نفسه في أيام صباه؟ مارك والفتاة التي تزوجها؟ أوه.. أجل.. المركيز متزوج.. تذكرت بريندا هذا من المقال الذي قرأته عنه، الصور أظهرته مع زوجته، وجعلها هذا تفكر كم هما جميلان معاً.. فزوجته كانت مذهلة الجمال.

كان هذا منذ خمس سنوات، خلال السنة التي ماتت فيها سالي زوجة أخيها.. في شتاء تلك السنة، أقنعت بريندا دان بأن يرافقها إلى عرض بريطاني لفنانين فرنسيين غير مشهورين في بريطانيا.. وكانت في الواقع محاولة لإخراج دان من سجن نفسه.

جال دان في المعرض لا يظهر اهتماماً.. من ناحية أخرى أحبت بريندا كل شيء رأته تقريباً.. كانت لوحات مارك ناعمة ورومانسية.. ويومها اشترت النسخة التي تحتفظ بها.. فشراء الأصلية أبعد من قدرتها.. فحتى النسخة سلبت معظم مدخراتها.. صحيح أنها لم تهتم لأنها يومها كانت تكسب مالاً كثيراً من العمل في المحكمة.

رافق المعرض دعاية صحفية كان أبرزها رواية عن الحادثة التي تعرض لها مارك في اليوم السابق للمعرض. كان مسافراً من فرنسا إلى انكلترا في طائرة خاصة تحطمت وهي تحط.

هكذا كان مارك وقت المعرض ملقى دون وعي في أحد مستشفيات لندن.. ولم يكن أحد يعرف يومها أن الفنان فقد البصر.. لكن أعلن هذا مطلع السنة في المقال الذي قرأته بريندا في مجلة يوم الأحد.. وذكرت المجلة اسم المركيز الكامل وأنه معروف في الوسط الفني باسم مارك.

هذه الأيام، لوحاته تساوي الكثير من المال.. ولا يسمع أحد ذكراً لاسمه.. بالنسبة لعالم الفن مارك مات.. لكن المركيز جان مارك

دوباقندال حي برزق، وكذلك سكوت سنيفن.

هزت بريندا رأسها عجباً لتذكرها كل شيء.. جان مارك دوباقندال رجل ذكي غير عادي ومتفوق.. والعمل له لن يكون مجرد وظيفة، بل تجربة فريدة ثمينة. وأحست بسعادة لا تفسير لها لهذا.

أجاب أخوها على الهاتف من أول رنة:

- بريندا! شكراً للسماء! لقد بدأت أقلق.. أين أنت؟

- في منزلي.

- أوه.. لا ألومك. ليس من السهل الوصول إلى هنا في هذا الطقس، كيف كانت المقابلة؟ هل أعجبه منظرك؟

بدا لها السؤال دون لباقة أبداً.. لكنه سؤال طبيعي خاصة أمام كلمات بريندا اللاذعة له ساعة فراقهما.

- .. الظاهر أنني أعجبته.

ضحك دان: لا تبدين واثقة جداً.

ابتسمت بقلق:

- حسناً.. لقد حصلت على الوظيفة..

وتابعت تشرح له أنها ستنتقل إلى سيلينا هاوس في اليوم التالي، ولم تقل له أي شيء عن رب عملها مع أنه سألها إذا كان كاتباً معروفاً.

قالت:

- أجل.. إنه معروف جداً.. لكنه يبدو شديد الحرص على إخفاء هويته. لذا لا أستطيع أن أقول لك اسمه المستعار عبر الهاتف.

في الواقع لن تتمكن من إعطاء اسمه لأحد إلا إذا أعطاها إذنه.

مع التأكيد بأنها ستراه نهاية الأسبوع القادم، أنهت المكالمة بعد أن ذكرته بنشر إعلان عن حاجته لمدبرة منزل.

في الحادية عشرة، خرجت من المغطس بعد أن نقعت فيه نفسها طويلاً، غنت فيه ثلاث أغنيات مفضلة لديها.. ثم غسلت شعرها.. فالغناء في الحمام عادة طفولية لم تكبر أبداً لتتجاوزها.. الغسيل انتهى،

وكذلك الكوي، والشقة نظيفة.. حتى أنها وضعت في ذهنها ماذا ستأخذ من ملابس معها.

آخر مهمة لبريندا كانت مثبطة للهمة. فهي منذ استطاعت أن تكتب، كانت تحتفظ بمذكرات.. ربما كان هذا لا معنى له.. لكنه شيء تفعله آلياً.. عادة متأصلة. وهي مراهقة كانت لديها فكرة كتابة قصة حياتها يوماً. لكنها تدرك الآن أن هذا أمر سخيف.. وكم ستكون قراءة مثل هذه المذكرات مملة! مع ذلك كانت تستمر في تسجيلاتها اليومية.. عادة سطر أو سطرين.

لكن الليلة تختلف، الليلة ستحتاج إلى أوراق زائدة بالرغم من أنها تكتب المذكرات بالاختزال! توقفت تضرب قلمها بخفة على أسنانها.. كيف ستتمكن أن تصف الرجل الذي تفكر به طوال المساء؟ أين يجب أن تبدأ؟ الجملة الأولى هي الأصعب عادة، بعد ذلك تتدفق الأفكار بسهولة.. وكان الوقت قد أصبح منتصف الليل حين دخلت فراشها.

* * *

كان غريفز يرتدي نفس الثياب المخيفة التي كان يرتديها في اليوم السابق وهو يقول لبريندا:

- إذا كان هناك شيء تريدينه آنسة، فالتقطي سماعة الهاتف واضغطي على زر الجرس.. إنه يعمل كهاتف داخلي إلى المطبخ، كما يحتوي على خط خارجي.

التفتت بريندا إلى الهاتف، ثم هزت رأسها تفهماً. لكن مع شيء من الارتباك.

«غرفة نومها» كانت جناحاً يحتوي على غرفة ملابس، غرفة جلوس بثلاثة مقاعد، جهاز تلفزيون ملون، وراديو وغرفة نوم كبيرة مع حمام. عدا غرفة الجلوس التي كان لها ورق جدران مخطط، وسجادة خضراء قاتمة، وبالرغم من أن المركز أعطاها حرية التنقل، إلا أن هذا

بالتأكيد يعني التزامها البقاء في جناحها خلال وقت الفراغ؟ في الواقع هنا يوجد كل شيء تحتاج إليه.

تأكدت هذه الفكرة حين قال غريفز إنه سيأتيها بالعشاء إلى غرفة جلوسها في الساعة الثامنة. . وأكد لها أن المسيو لو مركيز يبدأ العمل في السابعة صباحاً، مكملاً بسؤالها متى تريد الفطور وماذا تريد أن تأكل.

جلست على السرير تنظر إلى عينيه الزرقاوين الشاحبتين:

ـ آه. . مجرد شاي وتوست، أرجوك. . هل. . من المناسب أكثر أن أتناول الفطور في المطبخ؟

لم يهز حتى كتفيه. . بل قال بصراحة إن الأمر سيّان عنده، وسيكون مسروراً بأن يأتيها بالطعام إلى هنا.

ـ حسن جداً. . الساعة السادسة إذن. . شكراً لك غريفز.

توقعت أن يتركها. . لكنه التقط حقيبتها ووضعها إلى جانبها على السرير:

ـ ربما تنزلين إلى المطبخ بعد إفراغ حقيبتك لأريك أين يوجد كل شيء.

ابتسمت بريندا وهزت رأسها دون أن تفهم سبب دعوته، لكنها كانت راغبة تماماً في أن تماشيه.

ـ أترين آنسة توماسن. . من المهم جداً أن يبقى كل شيء في مكانه الصحيح في هذا المنزل. . مسيو لو مركيز يعرف كل تفاصيل البيت وما يحيط به من أرض. . ويجب أن تفهمي أنه لو تحرك أي شيء من مكانه، فسيتسبب هذا له بانزعاج كبير وقد يكون خطراً عليه. . سيأتي وقت قد تحتاجين فيه لشيء من المطبخ. . فلو كان هناك سكاكين ملقاة هنا وهناك، أو زجاجة. . .

ـ آه. . أجل. . أجل. . فهمت. . سأضع هذا نصب عيني أؤكد لك، فلا تقلق.

ـ من السهل جداً أن ينسى المرء آنسة. . لذلك أرجوك أن تتذكري

دوماً. . كما أود أن أطلب منك التأكد دائماً من إقفال الأبواب خلفك وأن لا تدعيها موارِبة أبداً.

نظرت إليه بقلق. . بالرغم من أدبه البارد وهو يقول لها هذا، كان لديها إحساس أن غريفز لن يكون مسروراً أبداً لو نسيت شيئاً مما قاله. . وبحركة من رأسه تدل على الاحترام تحرك نحو الباب. . لكنها سألته:

ـ غريفز. . هل كنت. . مع المركيز منذ مدة طويلة؟

ـ هكذا وهكذا. . لكنني أعرفه طوال حياته.

هكذا وهكذا؟ ماذا يفترض بهذا التعبير أن يعني؟

ـ أتعرف أنني أعرف من هو حقاً؟

استدار يلتقي بعينيها ويفكر بكلماته قبل أن يرد:

ـ لقد قال لي. . آنسة توماسن أنك تعرفين من كان.

حدقت بالباب بعد أن أقفله. . «تعرفين من كان»؟ من غيّر الصيغة إلى الماضي. . غريفز أم المركيز؟ على أي حال واضح أن المركيز يرغب في أن يبقى ماضيه ميتاً ومدفوناً.

في الساعة العاشرة، أقفلت بريندا جهاز التلفزيون وقررت القيام بشيء معقول. . أن تنام باكراً. . فالعاشرة من الآن وصاعداً ستصبح ساعة نومها المعتادة للستة أشهر القادمة.

بعد إعداد ساعة المنبه، استندت إلى الوسادة. . والمفكرة في يدها تحاول جمع أفكارها بترتيب محدد، ثم كتبت: «اليوم انتقلت إلى سيلينا هاوس. . وسميت هذه اللحظة باسم: «غريفز الغامض!» وليس لدي فكرة ما إذا كان يوافق أم لا يوافق على وجودي. . وليس الأمر مهماً، فأنا هنا لأؤدي عملاً. . .».

وتوقفت مترددة عند آخر جملة كتبتها. . أجل إنها هنا لتؤدي عملاً. . فما هو الذي يجعلها تشعر بالتململ في أعماقها؟ وهل ترتاب بأن المركيز صعب التعامل؟

لا. . لا شيء من هذا، ففي الواقع ذلك الإحساس الغامض كان

متلازماً مع شيء.. شيء يقارب الإثارة.

هذا التحليل ساعدها أن تتخلص من ذلك الإحساس، وبهزة رأس أنهت مذكرات يومها القصيرة بجملة أخرى.. ولكي تحدد ما هي مشاعرها الآن: منزوية، منفتحة الفكر، أم محايدة كتبت: الأبيض هو لوني اليوم!

لكن صدمة مواجهتها للمركيز وجهاً لوجه في الصباح الباكر، أعادت ذلك الإحساس على الفور الذي اعتقدت أنها تخلصت منه. كان يجلس في كرسي جلدي دوار، يبتعد قليلاً عن منضدته نصف مستدير نحو النافذة، بحيث أن بريندا صدمت بجانب وجهه القوي المنحوت بدقة.

هذا الصباح، وهو ينظر إلى الشرق، حيث الشمس تشرق ببطء، بدت عيناه رماديتين كئيبتين.. والجناحان الفضيان على فوديه يتناقضان بشكل دراماتيكي مع شعره الأسود.

كان يرتدي الأسود مرة أخرى.. بنطلون بسيط وقميص مفتوح الياقة يكشف عن خطوط عنقه القوية.

أحست بريندا بتقلص في معدتها.. وعاد ذلك الإحساس.. هذا إذا كان قد تركها أصلاً.. أجل إنه إحساس إثارة.. ووبخت نفسها لأنها تأثرت بهذه الوسامة المذهلة.

وهي تقفل الباب خلفها، رأت أصابع يده اليمنى تمر بخفة فوق ساعته.. وقال:

ـ أنت دقيقة جداً آنسة توماسن.. كما توقعت تماماً.. هل جناحك مرضيّ؟

ـ أكثر من مرضيّ.. شكراً لك.

توقفت في منتصف الغرفة، النور من نار الحطب تنعكس على فستانها الأزرق البسيط، ولاحظت أن الكرسي الذي استخدمته خلال المقابلة قد أزيل من مكانه. وأصبح إلى جانب المنضدة الكبيرة في مواجهته تماماً.

أشار جان مارك دوباڤندال نحو الكرسي:

ـ اجلسي.. سنبدأ العمل.. سنرتاح لتناول القهوة عند التاسعة.

جلست بريندا متوترة، مذهولة للطريقة التي التقت فيها عيناه بعينيها بشكل صحيح حين اقتربت منه، لم تعتد بعد على فكرة أنه لا يستطيع أن يراها.

سألها: أيمكن أن تقرأي اختزال شخص آخر؟ آخر سكرتيرة لي تركتني فجأة بسبب أزمة عائلية. وآخر صفحات من مخطوطة المؤلف لم تطبع بعد.. من عادتي الاستماع إلى آخر صفحتين أو ثلاثة قبل متابعة الإملاء.

ـ دعني ألقي نظرة، فهذا يعتمد على استخدامها للمقاطع.. معظم المختزلين يطورون طريقة خاصة بهم.

ـ أتعنين أنهم ينحرفون عن القواعد؟

ابتسمت:

ـ بل أعني أنهم ينحرفون عن القواعد.

التقط دفتر ملاحظات عن الطاولة وسأل:

ـ لماذا تسليك الفكرة؟

رفرفت بريندا.. مندهشة للطريقة التي قرأ فيها الابتسامة في صوتها.

ـ أنا.. ليس الأمر هكذا.. إنها الطريقة التي عارضت فيها رأيي وقلت لي بالضبط ما أعني.

ـ ليس لدي الوقت للدوران حول الموضوع..

أخذت بريندا الدفتر منه تجفل قليلاً مع ملامسة أصابعها أصابعه.. وكأنها تلقت صدمة كهربائية.. واحمر وجهها بشكل غبي وأخذت تفتش لتجد آخر بضع صفحات من الاختزال.

بدأت تقرأ بصوت مرتفع، وما هي إلا لحظات حتى أصبح من الواضح أن أسلوب المركيز في الكتابة مقتصد بقدر كلامه. لم يكن فيه تطويل لا في الشرح ولا في الكلام الصادر عن الشخصيات. كان الأسلوب جيداً واضحاً، يتحرك ضمن مسيرة ثابتة أثارت اهتمام بريندا على الفور وأسرتها.

كانت الشخصية الرئيسية لرجل اسمه وايلي، رجل قاسي القلب يفعل أي شيء لأجل المال.. في هذه المرحلة من القصة كان في لندن يتلقى تعليمات عن مهمة طلب منه تنفيذها في بلد استوائي في القارة الإفريقية.

لم تكن المادة تشبه ما اعتادت بريندا أن تقرأه. لكنها عرفت أنها ستتمتع بها.. ويا لها من طريقة لطيفة لكسب العيش، وهي تراقب بفضول انكشاف غموض القصة!

ـ هل أنت جاهزة.. آنسة توماسن؟

التقطت قلمها: تفضل.

ارتدت كرسي المركيز إلى الوراء وهو يميل عليها، ويبدأ الإملاء..

ـ.. لم ينتظر وايلي ليسمع ما تبقى.. بل وقف على حين غرة على قدميه واتجه إلى الباب.. يصيح بشورتمان: «انسى الأمر.. المهمة مستحيلة..» نظر إليه شورتمان ببرود.. إنه يريد وايلي لهذه المهمة.. وايلي، ولا أحد غيره.. «ما قولك لو ضاعفت أجرك؟» عند سماعه هذا استدار وايلي عن الباب، وشفتاه مكورتان بتكشيرة: «سأقول إنها ممكنة..».

بالنسبة لبريندا، كان صباحاً غريباً.. طريقة جديدة للعمل، كان إملاء المركيز يأتي باندفاع قصير وطويل.. وفي الصمت بين الجمل، هو يجمع أفكاره، لم تكن تحرك عضلة خوفاً من أن تزعجه أو تلهيه.. وما إن حلت الساعة التاسعة حتى كانت متلهفة لفنجان قهوة.

وقف المركيز عن كرسيه، وتحرك قليلاً يمدد ساقيه بطريقة الفهد:

ـ لقد قرعت الجرس لغريفز.. سيأتينا بالقهوة بعد بضع دقائق.. كيف الحال؟

ـ الإملاء؟ على ما يرام.

كم هي كفاءة هذا الرجل! كم هو منظم!

نظرت إلى ساعتها:

ـ مسيو لو مركيز.. أود الاتصال بالوكالة إذا أمكن. لا شك أن

المكتب مفتوح الآن ومن الأفضل أن يعرفوا أين أنا.

ـ بكل سرور.. هناك هاتف في مكتبك المجاور لمكتبي تماماً.

أشار إلى باب مشترك في زاوية الغرفة لم تلاحظه بريندا من قبل:

ـ وبإمكانك كذلك توبيخهم عني.

ـ أرجو المعذرة؟

ـ لقد جئت إلى هنا يوم السبت دون أية فكرة عن هذه الوظيفة.. كبداية، لم يقل لك أحد إن هذه وظيفة تتطلب الإقامة هنا.. لقد سمعت الانزعاج في صوتك آنسة توماسن، وسمعت الطريقة التي حاولت بها أن تغطي نقص المعلومات التي وفرتها لك الوكالة.. وأنت الآن على وشك توبيخهم.. وهذا من حقك.

غادرت بريندا الغرفة دون قول شيء وجلست قرب الهاتف في مكتبها دون التقاط السماعة.. اللعنة! كم كانت شفافة خلال المقابلة! كانت تعرف أن الحواس الأربعة المتبقية لمن يفقد البصر تزيد حدة وتصبح أكثر فعالية. لكن المركيز يستطيع قراءة أي إحساس، كل تأثر في الكلام، كل تنهيدة أو ابتسامة!

لم تكن بيني في الوكالة.. وبدا أنها لن تعود قبل الغد.. فتنهدت بريندا وأعادت السماعة إلى مكانها.. كان غضبها قد تلاشى، فعلى أي حال لقد حصلت على العمل وهي الآن تقوم بعمل جيد.

لم يكن في مكتبها مدفئة نار، لكن كان فيه سخانان لتدفئة مركزية، الأرض مكسوة ببساط صوفي سميك بلون صدئي تعطي الغرفة جواً من الحياة.. ولاحظت أن فيها آلة طباعة حديثة إلى جانبها كومة أوراق مطبوعة، الصفحات الأولى من الفصل الأول لرواية المركيز.. أو رواية سكوت ستيڤن.

عند عودتها إلى المكتبة، فاجأتها رائحة سيكارة المركيز. كانت رائحة لطيفة.. ربما فرنسية الصنع.

تابع الوقت تقدمه بشكل مرضي، إلى أن ارتكبت بريندا أول غلطة..

حين توقف المركيز عن الإملاء، سألته أين يمكن أن تجد مخطوطتي آخر كتابين له، قائلة إنها ترغب في قراءتهما.

أجابها بصوته المخملي بلطف:

- إنهما في الدرج الأعلى من خزانة الملفات.. لكن اطلبي من غريش نسخاً مطبوعة ستكون أسهل عليك.

ساعتها تخلت عن حذرها وسألت:

- هل مضى عليك زمن طويل وأنت تكتب.. سيد لو مركيز؟

مرّت ظلال على وجهه وغاب الهدوء المعتاد من صوته:

- كنت أكتب قبل أن تبلغي عهد المراهقة بكثير.

شدت بريندا قبضتيها وانغرزت أظافرها في راحتيها. ماذا من المفترض أن يكون هذا؟ امتحان لقابليتها على تحمل الصدمة؟ حسن جداً.. لن ترد. لن تعطيه الرضى بسماع ردة فعلها! إنها لم تقصد الإشارة إلى ماضيه، بل كانت تتساءل فقط كم مضى عليه من وقت يكتب باسم سكوت ستيفن. وتأكدت من شيء واحد.. لن تسأله بعد الآن أي سؤال يمكن تفسيره ولو من بعيد على أنه أمر شخصي.

* * *

٤ ـ تذوب كالماء

تركت الأيام الأولى في «سيلينا هاوس» بريندا في حالة ارتباك.. كانت مقتنعة أن المركيز رجل وحيد. اختار أن يعيش بعيداً عن أي مكان ليحمي شخصيته الحقيقية.. كان يرتدي الأسود ولا يبتسم أبداً، يكتب كتباً مليئة بالعنف.. مع ذلك يعيش في منزل أنيق مليء بالألوان، والجمال والرومانس.

على جدار الدرج، وفي ردهة الطابق الأول حيث جناحها، رأت لوحتين أخريين من لوحات مارك.. وتذكرت بوضوح محتويات غرفة الجلوس.. هنا وهناك، أشياء ثمينة وجميلة.. هناك أشياء كثيرة، تسعد العين.

كل هذا.. في منزل سكوت ستيفن؟ كل هذا.. في منزل رجل لا يبصر؟ لمن كل هذه المباهج البصرية؟

خلال أربعة أيام، حسب علمها، لم يأتِ زائر واحد، ولا حتى مخابرة هاتفية.

أين هي زوجته؟ هل سافرت إلى مكان أكثر دفئاً لتمضية الشتاء؟ ربما تكون مجنونة لتفكر بأن تتركه يتم كتابه وحده؟ لكن المركيز قال إنه يعيش وحده.. ربما تركته نهائياً؟

وجدت بريندا من الصعب التوافق معه.. فهل هو فعلاً صعب المراس؟

كان الثلج لا زال يغطي الأرض، ويحاول منع الربيع من الظهور.. لكن الطبيعة ستأخذ مجراها.. والربيع قادم لا محالة.

أضاءت المصابيح وعادت إلى الجلوس تتمتع بغرفة جلوسها، مع أنها تشعر برغبة في الخلاص منها.. ربما السبب أنها تشعر بالوحدة.. وربما لأن هذا المنزل موحش كأمسياتها في لندن.. لكنها كانت تعرف هذا.. على الأقل، المناظر حولها أفضل بكثير مما تراه من شقتها في بادنتغتون.

لقد عرفت لماذا أعطاها المركيز الوظيفة بعد رفضه لأربع سكرتيرات من الوكالة، بالرغم من إشارتها الخرقاء لماضيه.. لأنها أظهرت أنها لم تضطرب لعماه ولا أحرجها أبداً، فهو لا يتحمل أحداً لا يستطيع التعاطي مع إعاقته كما يتعاطى معها هو. بينهما، على الأقل في هذه المسألة، كان هناك تفاهم غير ملفوظ.. لكن لماذا تشعر بالحاجة إلى التواصل معه؟.. كانت محاولاتها للحديث، تُصدّ بجملة قصيرة، لا تترك لديها أدنى شك أنه لا يرغب في المزيد من التفاهم.

دق غريفز على بابها بعد الثامنة بقليل، وتقبلت منه العشاء بامتنان مبتسمة. لا شك أن غريفز يقوم بهذا لعادة تأصّلت في نفسه بعد خدمته الطويلة للرجل الفرنسي.. وقالت تبتسم له:

ـ طعامك دائماً رائع غريفز.. أين تعلمت الطبخ الجيد هكذا؟

تابع تحضير المائدة على طاولة صغيرة أمامها، وهو يقول:

ـ تعلمت؟ لا أذكر حقاً.. أظن هذا أمراً طبيعياً.. هل ستتناولين القهوة فيما بعد آنسة؟

ـ لا.. شكراً لك.. سأنزل إلى المطبخ وأعدّ لنفسي بعض الشاي.

ـ حسن جداً.. هناك تجميع للغسيل في الغد، هل هناك شيء تودين إرساله؟

ـ لا.. شكراً.. هل يتم إيصال كل شيء إلى المنزل؟ أعني الخضار والسمانة و...

ـ أجل.. كل الخدمات العادية آنسة.. سأذهب إلى القرية غداً. هل هناك شيء تريدينه؟

تنهدت: لا.. لا.. أنا فقط.

كان غريفز مثله مثل المركيز، لديه طريقة متفوقة في تحويل الحديث إلى موضوع آخر.. مع ذلك اغتنمت الفرصة لتسأله سؤالاً مباشراً:

ـ لماذا يعيش المركيز في انكلترا؟ أنا.. أذكر أنني قرأت في مكان ما أنه نصف إنكليزي، في الواقع.. لكنني أذكر كذلك أن المقال قال إن منزله في باريس؟

لم يتغير تعبير وجه غريفز وقال وهو يتحرك إلى الباب:

ـ كنت أعتقد أن الجواب واضح آنسة. لا شك أنه يحب المقام هنا.. عمت مساء.. آنسة.

التقطت بريندا الشوكة والسكين مقطبة.. ألم يكن غريفز الغامض ظريفاً الآن؟ كيف يمكن للمركيز أن يحب الحياة هنا وهو يعيش كناسك ولا يمكنه أن يتمتع حتى بمناظر الريف الإنكليزي؟

كانت الأمسية لا زالت أمامها، وتساءلت ماذا ستفعل بها.. لأول مرة لم تشعر برغبة في القراءة.. ربما ستنقع نفسها طويلاً في المغطس، ثم تشاهد التلفزيون قليلاً.. لكن أولاً ستتصل بدان، إنه يتوقعها في نهاية هذا الأسبوع، لكنه لا يعرف بعد أنها ستعمل أيام السبت ولن تصل إلى «سوراي» حتى بعد الظهر.

حياها دان بحرارة.. بحرارة أكثر من العادة.

ـ بريندا، أحمد الله على اتصالك.. كنت سأحاول الاتصال هذا المساء، لكنني لم أجد رقم هاتف السيد غريفز، هل هو رقم خارج الدليل أم ماذا؟

ضحكت بريندا:

- بإمكانك قول هذا.. لكن ما الخطب؟ كان بإمكانك الاتصال بمكتب يورك لتحصل على الرقم.

- كنت سأفعل هذا غداً، على أي حال لا شيء خاطىء سوى أنني كنت سأستبقيك بعيدة هذا الأسبوع، فكلنا مصابون برشح مزعج.

غاص قلب بريندا.

- أوه.. أنت تعلم أنني لا ألتقط الرشح بسرعة.. وسأجيء على أي حال.. أظنك ستكون مسروراً ليد تساعدك إذا لم يكن الولدان على ما يرام.

- لا تكوني عنيدة.. لا داعي للمخاطرة وأنت تبدأين عملاً جديداً.

وعطس كأنما ليبرهن كلامه.

- لكنك بحاجة إلى مساعدة، دان.. يمكنني على الأقل أن أطهو..

قال أخوها بصوت حازم:

- لا.. لا تفعلي.. والدة سالي قادمة غداً.. وستبقى معنا بضعة أيام.. وسنكون بخير.

- وهل هي قادمة من «تاونتون»؟

كما كانت سالي، الأم شخصية لطيفة جداً، لكنها لم تكن ممن يتحملون طقس الربيع، ومن الظلم المجيء بها من «سومرست» لتعتني بثلاثة مرضى.

وتوقع دان سؤالها التالي:

- أعرف.. أعرف.. أنا لم أرسل بطلبها إذا كان هذا ما تفكرين به..

حدث أنها اتصلت وكلمها دايفد أولاً وقال لها بمرح إنه لم يذهب إلى المدرسة.. بعد ذلك لم أستطع أن أبعدها.

- هه.. هل أعلنت عن طلب مدبرة منزل؟ أنا واثقة أنكم لا تتناولون طعاماً جيداً.. وعلى الأرجح أنكم التقطتم الرشح لأنكم بحاجة إلى الفيتامينات المناسبة.

ضحك دان:

- هذا ممكن.. لقد نشرت الإعلان في الصحف المحلية يوم الثلاثاء، والأمس، واليوم، لكن حتى الآن لم أتلق مكالمة واحدة..

- إذن من الأفضل الإعلان في الصحف الوطنية.

- لكن هذا مكلف أختي!

- دان..!

- سأفعل! أعطني رقم هاتفك لأتصل بك في الأسبوع المقبل.

أعطته بريندا الرقم وحذرته أن لا يتصل قبل الحادية عشرة صباحاً.

بعد ذلك أمضت بقية الأمسية أمام التلفزيون.. ستذهب إلى منزلها هذا الأسبوع، لكن لن تقضي يوماً ونصف أمام التلفزيون ومع المكنسة وآلة الغسيل رفيقتان.. لقد بلغت مرحلة تتشوق فيها إلى الحديث.. ستزور شخصاً.. أو تمضي السهرة مع كاثلين، هذا إذا كانت موجودة.

لكن نهاية أسبوعها تحولت إلى شيء كريه.. فمساء السبت لم يرد هاتف كاثلين.. إحدى صديقاتها المتزوجات أصيبت بالأنفلونزا المنتشرة والأخرى لديها أنسباؤها يقيمون لديها لعطلة نهاية الأسبوع.. هكذا اضطرت بريندا إلى القيام بزيارة منفردة إلى السينما.

مع حلول منتصف الأسبوع التالي، كانت تشعر بحبور أكثر. لقد اتصل دان ليقول لها إن الجميع استعاد صحته، والطقس أخذ يعد بحرارة أكبر، عدا كل هذا أحست أنها استقرت في عملها.

استقرت؟ لكنها لم تشعر من قبل بأنها غير مستقرة، قلقة.. فلماذا تحس بسعادة أكبر؟ كان الرد على هذا غريباً.. لكن عليها أن تكون صادقة مع نفسها.. إنها سعيدة لأن العمل ينقلب إلى متعة.. وهناك قصة وايلي بطل سكوت ستيفن.. وهناك نوع من الأمن العاطفي الذي تجده طبيعتها في الروتين.. لكن فوق كل هذا، كان هناك لذة أن تكون في رفقته.

كان يسحرها أكثر فأكثر مع مرور كل يوم.. أصبحت الآن قادرة على مشاركته صمته حين يصمت خلال الإملاء.. لكن أفكاره لا يمكن مشاركتها طبعاً.. فهو دائماً مشغول بكلمة وايلي التالية، عمل وايلي

القادم، بينما هي مشغولة الفكر بالمركيز نفسه.

مرة بعد أخرى كانت تنظر إلى لوحة مارك فوق المدفئة، ثم تنظر مجدداً إلى سكوت ستيڤن.. وليس إلى المركيز. هذا الرجل لا شك تغير إلى درجة مأساوية.. كما تغير عمله.. صحيح أنه لا زال مبدعاً.. لكنها ببساطة لا تستطيع التوفيق بين الرومانسية والحساسية اللتين كان يتسم بهما مارك، مع الفظاظة والعنف الفائضين من سكوت ستيڤن.

في مكان ما بين الفنان والكاتب، يوجد الرجل نفسه. وهو نفسه من يذهلها.. إنه هو.. الرجل الذي يجمع اليوم خلاصة كل ما اختبره، عاناه، ضحك له، خاف منه، وتلذذ به.

جان مارك.. الرجل.

يوم السبت من ثاني أسبوع لها في «سيلينا هاوس» تغير الطقس أخيراً.. استيقظت لترى الشمس الشاحبة تعلو في السماء الواعدة بأن تكون زرقاء.. الليلة ستتقدم كل الساعات ساعة ايذاناً بوصول الربيع.

ألقت بريندا على رئيسها تحية الصباح وهي تجلس قرب منضدته، ثم وربما نتيجة معنوياتها المرتفعة.. ألقت تعليقاً عن الطقس. قالت مبتسمة وهي تعرف أنه سيسمع ابتسامتها:

ـ لقد شاهدنا آخر الثلج.. ومع أنه كان جميلاً، فلقد كرهته لأنه أبقاني داخل المنزل كثيراً.. لكنه سيذهب الآن، الثلج يذوب... الأشجار تبدو كأنها تذوب.

مال إلى الوراء في كرسيه وأصابعه تضرب بخفة على الذراع الخشبي.

ـ أتعنين أن الدفء بدأ هجومه؟

لم يكن سؤالاً.. بل كانت طريقته لإقفال الحديث.. وأجابت:

ـ حسن جداً، إذا شئت أن تصف الأمر هكذا.

استدار الوجه الجميل المنحوت إليها وعيناه الفاحصتان تأسران عينيها بطريقته الخارقة للطبيعة.

ـ لكن ألست أنت الفتاة التي قالت لي إنها واقعية؟ آنسة توماسن،

الواقعيون لا يتكلمون عن ذوبان الأشجار.

ذهلت بريندا.. إنه على حق طبعاً.. لكن ما هذا.. تبادل حديث؟ أم أنه نوع من التأدب لمجرد أنه سمع التوتر في صوتها؟ لا.. هذا ليس مجرد أدب، لأنه كان ينظر إليها الآن بتوقع وكأنه يريد رداً. ثم ابتسم لها فضحكت. أسعدتها ابتسامته كثيراً، مجرد ابتسامة.. من السهل الابتسام.. لكنها تستطيع العد على أصابع يد واحدة عدد المرات التي تفضل عليها بواحدة خلال أربعة عشر يوماً.

ـ مسيو لو مركيز.. هناك شيء أريد أن أسألك إياه.. سوف أرى أخي بعد الظهر و.. ومن الطبيعي أن يطرح أسئلة عمن أعمل له.. إنه.. يعرف أنك كاتب.. لكن.. هل أستطيع أن أقول له من أنت؟

أحنى رأسه باختصار يمنحها الإذن، وزادت ابتسامته اتساعاً:

ـ بالطبع تستطيعين، فأنا واثق أن أخاك يكتم السر.. ولا أعتقد للحظة واحدة أنه سيضع إعلاناً في «التايمز».

قالت بخفة: لا.. ليس حول هذا الأمر.

ـ عفواً؟

ـ آسفة.. انس الأمر.

ذكرتها فكاهة المركيز بمشكلة دان ومدبرة المنزل، وارتفع حاجباه قليلاً:

ـ ما الذي لامسته بكلامي؟ هل يعمل أخاك لصحيفة وطنية.. هل هذا هو الأمر؟

ـ لا.. دان محامي، الأمر فقط أنك ذكرتني بأمر آخر. من المفترض أن ينشر إعلاناً لمدبرة منزل هذا الأسبوع.. فهو بحاجة ماسة لها.. في الواقع، أنا قلقة عليه، حتى كدت لا أجيء أصلاً للمقابلة! أردت.. أعني.. لا.. هذا غير صحيح.. لم يسمح دان.

ولم تعد راضية عن نفسها، فتلاشى صوتها.. إنها الآن فعلاً تتكلم مع المركيز.. وأصبحت مربوطة اللسان ومتوترة. إنها تثرثر ولا يمكن أن

يكون مهتماً على أي حال.

لكنه كان مهتماً، إذ قال بصوته المخملي: أكملي شرحك.

كانت الطريقة التي حثها فيها على الحديث لطيفة جداً.. لم يدفعها، بل مال إلى الأمام، ذراعاه على الطاولة ويداه مضمومتان بخفة أمامه، وعلى وجهه تلك النظرة المهتمة.

أخبرته عن دان وولديه.. وكيف كانوا مؤخراً متعبين وكيف أنهم بحاجة ماسة لمن يرعاهم، وكيف تطوعت لهذه المهمة بنفسها.. وكيف رفض دان.. كانت مسترخية تماماً وطبيعية بحيث لم تفكر بآخر كلماتها:

ـ هكذا قلت لدان إنه يتصرف كالأطفال وإنني في النهاية سأصبح عمة عانساً على أي حال.. لكنني لم أستطع أن أغير رأيه.. بل أصرّ على أن تكون لي حياتي الخاصة، وهذا كل شيء.

مرت بضع ثوانٍ قبل أن يعلق المركيز:

ـ إنه على حق تماماً، يجب أن تعيشي حياتك.. يبدو أن دان رجل طيب.. أخبريني المزيد عنه.

ساد الصمت مجدداً.. وتلعثمت بريندا.. كان يجب أن تعرف أنه لم يكن يظهر الأدب فقط، فهذا ليس أسلوبه.. لقد كان يهتم بالفعل بعائلتها.. لكنها لا تستطيع أن تتصور السبب.

ثم:

ـ بريندا..؟ هل لي أن أدعوك بريندا؟

ـ بالطبع!

ـ وهل ستتمكنين من مخاطبتي بما هو أقل من الرسميات؟

أقل من الرسميات؟

ـ أجل مسيو مارك.

ابتسم ومال إلى الأمام أكثر يقول لها وكأنها معاقة:

ـ حاولي هذا.. جان. جـ.. ا.. ن!

ارتفع حاجبا بريندا ذهولاً.. وكررت الاسم كالببغاء كما لفظه تماماً.

ـ أحسنت! والآن كنت ستخبريني عن أخيك.

ـ أجل.. لكنه.. كما ترى.. دان عادي جداً، حتى أن من الصعب وصفه.. حقاً.

بدأت تعبث بدفترها، شفتها السفلى عالقة بين أسنانها، وهي تفكر بأفضل طريقة لوصف أخيها.

ـ دعني أقول هذا.. لو كان دان.. مثلاً.. بناية.. فسيكون مبنى البلدية.. لأنها عملية فعالة، إذا كنت ترى ما أعني.. ولو كان لوناً، فهو الكاكي، لون متعقل دافىء، لكنه مضجر.

لم يضحك المركيز، بل العكس دخل روح القول:

ـ فهمت الفكرة.. الإحساس.. ولو كان زجاجاً، لكان إبريقاً عادياً.. أليس كذلك؟

ضحكت: تماماً!

ـ وإذا كان ماءً، فما هو الشكل الذي يأخذه؟

ـ آه..! هذا تشبيه جيد! سؤال جيد.. لأن الماء يتخذ عدة أشكال، وله عدة مزاجات.. لذا فسيكون دان.. أجل.. سيكون بركة.. كبيرة وهادئة، و.. أنا آسفة لأن أقول هذا، راكدة قليلاً.

هز المركيز رأسه ببطء واهتمام.

ـ الآن بريندا.. لو كنت أنت ماء.. فماذا تكونين؟

فكرت بجهد، مسرورة لأنه مهتم ومضطرة لقول الحقيقة:

ـ مثله تماماً كما أخشى.

ـ مخطئة!

أصبحت ابتسامته فجأة وميضاً أبيضاً جعل دقات قلبها تتسارع فجأة.. في تلك اللحظة، بدت عيناه مختلفتين مرة أخرى.. بدتا بنيتين قاتمتين دافئتين ومليئتين بالمرح.. فقالت متحدية:

ـ حسن جداً.. أخبرني إذن ماذا أكون!

تراجع المركيز فجأة، وقال بلهجة تصرف النظر:

- في وقت آخر. يجب أن نضغط سير عملنا الآن.

وكأنما اكتفى من العبث التافه.. أو أنه أدرك فجأة أنها تضيع له وقته.. على أي حال، تغير الجو بسرعة جعلت بريندا تحس بارتباك بانزعاج سخيف.

حين انتهى الإملاء قبل الحادية عشرة بقليل، وقفت وقالت له إنها مسافرة فوراً إلى سوراي.

- سأطبع عمل اليوم مساء الغد حين أعود.

هز رأسه دون تعليق.. فتركت الغرفة بينما كان يستدير بكرسيه ليواجه النافذة.. لا شك أن الشمس أصبحت عالية جداً الآن، لكنه لا يشعر عبر النافذة بشيء من حرارتها.. وماذا عن الثلج؟ هل ذاب كلياً.. أم أن الأشجار لا زالت تذوب؟

كان راضياً بوجودها هنا.. هذه الفتاة التي تجيء معها بروح الورود إلى الغرفة كل صباح.. لم يكن يستطيع معرفة نوع عطرها.. ربما عطر إنكليزي له رائحة إنكليزية أصيلة.

ابتسم جان مارك لنفسه بقلق.. آه لكنه اليوم لن يستطيع المقاومة! كيف يمكن أن تظن نفسها واقعية وهي في أغلب الأوقات تقول أشياء بجمل شاعرية؟ وصوتها، ذلك الصوت الناعم الفائق الأنوثة، بضحكته الخجولة وقهقهته التي تخرج من أعماق حنجرتها.. إنها تبتهج بأشياء بسيطة.. باستطاعته سماع الحماس المؤثر، حين قالت له ذات صباح في وقت سابق من الأسبوع إن طائر عقعق وقف لتوه خارج النافذة، ثم كأن الأمر بالغ الأهمية، أضافت:

- أوه.. وليفته جاءت تقف معه! الحمد لله، فالمثل يقول «غراب واحد للأسى، اثنان للفرح» أتعرف هذا؟

ولم يرد، لم يعرف تماماً كيف يرد، وكأنه نسي كيف يتكلم بهذا المستوى.. لكن كان هناك أوقات كان فيها.. لا.. لا يجب أن ينظر إلى الخلف.. لقد أصبح هناك نظام لحياته الآن، ومن دونه لن يستطيع أن

يكون فاعلاً.. في حركاته، روتينه، هناك حدود فرضت عليه.. لكنها حدود من السهل جداً أن يعيش معها، حدود أخذت وقتاً طويلاً وتطلبت تدريباً لدماغه.. يجري دماغه الآن فوق خطوط روتينية محددة لا تسمح بالتسكع ولا بالعواطف.

كون بريندا توماسن عميقة الإدراك، حساسة، أمر عرفه من الطريقة التي أنهت فيها المقابلة الأولى.. في الواقع تصرفت وكأنها قرأت أفكاره.. لكنه لم يدرك أنها رومانسية هكذا.. لم يدرك أنها ستكون كأنفاس الهواء النقي.. بهجة لن يتحمل التجاوب معها.

لكنه اليوم استجاب، أحس بالحاجة إلى أن يقترب منها. إلا أن هذا لن يحصل مرة أخرى، لا يجب أن يحصل مرة أخرى.. فهذا أمر خطير جداً.. خطير! إنه لا يجرؤ على المخاطرة بأي شيء يزعج حياته.. أي عودة إلى العواطف والأفكار التي لزمه خمس سنوات من القتال ليغلبها ويدفنها.

لا.. إنه ببساطة، لن يجرؤ على السماح لنفسه أن يشرب من النبع الحلو المترقرق الذي اسمه بريندا، مع إطلالة الربيع.

* * *

٥ ـ الرسم بالكلمات

نظرت بريندا إلى أخيها بترقب تسأله:

ـ حسناً! ما رأيك بالمركيز حسبما قلته لك عنه؟

كان دان توماسن ينفخ غليونه، وقد أدهشته الجدية في صوت أخته. هز كتفيه وقال:

ـ إنه لا يشبه في شيء الصورة الذهنية التي رسمتها لسكوت ستيفن لكن الأمر جيد أن تعملي لمثل هذا المؤلف المعروف.. هه؟ أنا فعلاً أتمتع بكتبه!

كانت خيبة أمل بريندا مساوية للانزعاج الذي تحسه من نفسها. أملت أن يفهم دان لماذا هي فضولية لكن كان يجب أن تعرف أنه لن يفهم..

كانت ردة فعل دان لسماعه عن هويتيَ المركيز الأخيرتين، مختلفة تماماً عن ردة فعلها.. لقد تأثر كثيراً إلى درجة الاهتياج بمعرفة أن شقيقته تعمل مع سكوت ستيفن.. لكنه لم يكن مهتماً أن يكون ذات الرجل هو مارك، الرسام الذي كان فنه يبهج الناس، لو أنه فقط..

لكن.. هذا هو دان الذي سأل ممازحاً:

ـ لماذا صمت.. كنت تتكلمين عن الرجل منذ ساعة.. لا تدعي رأيي يوقفك!

ابتسمت بريندا.. هل استمرت في الكلام لساعة فعلاً؟ لا شك أن دان ضجر منها:

ـ آسفة.. هل أبدأ بتحضير العشاء؟ سيأخذ بعض الوقت. متى سيعود الولدان من حفلتهما؟

ـ لا تقلقي عليهما.. فلن يرغبا في العشاء بعد أن يحشوا نفسيهما بالكايك والآيس كريم طوال بعد الظهر. لكن، هيا بريندا تابعي كلامك. ماذا كنت تسألينني؟

لم تجد جدوى من متابعة الحديث..

ـ أوه.. لا شيء.. أنا.. فقط كنت أتساءل ما إذا كنت توافق معي على أنه رجل وحيد.

ضرب غليونه فوق المنفضة بصوت مرتفع:

ـ أستطيع القول إنه هكذا فعلاً.. لكن كما قلت لقد اختار أن يعيش أميالاً بعيداً عن أي مكان دون أن يزوره أحد، لكن ماذا يهمك من كل هذا على أي حال؟ هل أنت معجبة به؟

ردت بريندا بعنف:

ـ لا تكن سخيفاً! إنه رجل متزوج! إضافة إلى هذا، أنت لا تعتقد أن رجلاً مثله قد يهتم بفتاة مثلي!

ـ لا أرى لماذا لا.. لماذا تقللين من قيمة نفسك دائماً كلما اقتربنا من موضوع الرجال، أو موضوع جاذبيتك وأنوثتك؟

ـ هيا الآن دان.. أنت أخي وأتوقع منك الصراحة.. فلنواجه الأمر.. أنا لست لافتة للنظر!

أخذ يملأ غليونه مجدداً، وبدأ انشغاله المطول بهذا يزعجها.. ثم أجاب:

ـ لكن المركيز لا يعرف هذا.

ـ دان..؟

ـ لا.. أنا لا أعني شيئاً سيئاً.. وتعرفين هذا. كل ما أقوله أن الرجال لا ينجذبون إلى النساء دائماً بسبب مظهرهن. وأنت تعرفين هذا كذلك.. ماذا عن شخصيتك الرائعة؟ ماذا عن إخلاصك، ذكائك، وصبرك؟

الصبر.. إنها تفقده الآن بسرعة:

- أنت أخي.. أنت ملزم بأن تعتقد أن لدي هذه المواصفات. أنت منحاز.

- كلام سخيف! وبما أننا نذكر الموضوع، دعيني أوضح لك أمراً آخر. أنت لست غير جذابة.. صحيح أنك عادية المظهر.. لكنك لا تتزينين جيداً لتظهري أفضل ما لديك.. صحيح؟ أعني، لو فعلت شيئاً لشعرك ووضعت بعض الماكياج، فستتمكنين من جذب الكثير من الرجال ممن...

قاطعته:

- ... ممن سيكتشفون فيما بعد كم أنا جميلة فعلاً.

- لم أكن سأقول هذا.. ليس بالضبط.

- إذن كنت ستقول إنني أكاد أصل الرابعة والعشرين ولقد آن الوقت لأتزوج.

وقفت بريندا وأخذت سيكارة من علبة على رف المدفئة. لقد تحول هذا الحديث فجأة إلى التوتر.

لم يلحظ دان توترها.. بل بدا مشغول الفكر بشيء آخر ما عدا غليونه.. ثم قال ببطء وكأنه حل معضلة:

- أوه.. أجل.. أذكر أين رأيت هذا الآن.. جان مارك ليس متزوجاً في الواقع.. لقد طلق منذ مدة.. أذكر أنني قرأت هذا.

كانت ولاعة الطاولة لا زالت في يد بريندا.. واشتدت أصابعها دون إرادة عليها وهي تجاهد لإبقاء صوتها عادياً غير مضطرب.. وسألت: هل أنت متأكد؟

- تعرفين أن لي ذاكرة قوية.. بالطبع أنا متأكد! لقد قرأت هذا.. لكنني كنت أحاول أن أتذكر أين.. همم.. هذا صحيح.. مارك كان متزوجاً من امرأة اسمها اليان.. ولقد هربت مع رجل آخر.. شخص في السينما.. كانت امرأة جميلة جداً.. أذكر صورتها...

نظرت بريندا إلى الغرض الذي بين يديها، ثم رفعت نظرها لترى دان يراقبها مقطباً بعدم رضى ظاهر:

- أختي.. أنت تقعين في حب هذا الرجل.. أليس كذلك؟

- دان.. إذا قلت هذا مرة أخرى.. سأخرج.. وبإمكانك تحضير العشاء بنفسك.

- أنا لم أرك متوترة الأعصاب هكذا منذ زمن طويل.. حسناً، إذا كنت ستأخذين بنصيحتي، أوقفي هذا قبل أن يحدث.. يجب أن تتركي ذلك المنزل فوراً..

وقفت مرة أخرى.. شديدة الاضطراب:

- عمّ تتكلم بحق السماء؟

ماذا هناك لتوقفه قبل أن يحدث؟ أن تترك سيلينا هاوس؟ كيف بمكنتها أن تفعل هذا؟ حتى لو أرادت..

لكن الفكرة لم تتطور أكثر.. فملاحظة دان التالية قلبت التوازن وأفقدتها أعصابها تماماً.

- أعني أنني لا أريدك أن تتورطي مع رجل أعمى. أتريدين هذا؟

كادت بريندا توماسن، البطيئة الغضب عادة، تنقض على عنقه:

- ماذا؟ وما دخل بصره في كل هذا؟

لم يبدُ على دان الخجل.. بل دس غليونه بين أسنانه وكلمها وكأنها في العاشرة من عمرها.

- أنت الآن سخيفة.. تعرفين الرد على هذا كما أعرفه.. أي نوع من الحياة ستعيشين.. مع رجل أعمى؟ يجب أن تقضي على هذا في مهده.. أعني.. لماذا هو؟ حتى ولو كان سكوت ستيفن! لماذا تتوجهين إلى رجل لا يستطيع حتى...

- كف عن هذا!

أطفأت سيكارتها بعنف، وعبرت الغرفة لتفتح الباب:

- سوف أبدأ بتحضير العشاء.. أنا آسفة دان، لكنني لا أريد المزيد

من الجدال حول هذا.. ليس الآن، ولا أبداً.. فأنت لا تعرف عمَّ تتكلم..

لكنها ببساطة لم تستطع ترك الأمر هكذا.. ورجعت بسرعة إلى باب غرفة الجلوس:

ـ أجد كلامك عن إعاقة جان مقرفة! والأسوأ من هذا إنها تخيفني.. لأنني أتساءل بأي قياس تقيس قيمة رجل!

كانت لا زالت منزعجة حين دخل دان المطبخ بعد نصف ساعة، لكنها ابتسمت له.. فهو أخوها وعليها أن تحبه بغض النظر عن أي شيء. إنهما مقربان وسيبقيان هكذا.. لكن بريندا عرفت منذ وقت طويل أن تفكيرهما مختلف تماماً.. فهناك أعماق لن يستطيع دان خوضها، أشياء عن الطبيعة البشرية لن يفهمها أبداً. لف ذراعه حولها:

ـ آسف.. ليس في وسعي إلا أن أكون أخاك الأكبر.

ـ أعرف.. ولا بأس بهذا «أخي الأكبر».

لكن كان هناك أوقات تحس فيها أنها أكبر منه سناً بكثير.

ـ هاي! لم تسمعي أخباري عن مدبرة المنزل.

أحست بالذنب فوراً.. لقد تكلمت كثيراً منذ وصلت ونسيت هذه المسألة:

ـ وهل وجدت واحدة؟

ـ ليس بالضبط، لكنني متفائل.. نشرت إعلاناً في صحيفة «التلغراف».. نشرة واحدة فقط وتلقيت خمس مخابرات.. لكن هناك امرأة واحدة تبدو واعدة.. إنها اسكتلندية وستأتي لتراني في الأسبوع المقبل. وبالطبع يجب أن أدفع لها المصاريف.. لكنها بدت لطيفة جداً على الهاتف. إنها مدبرة منزل منذ سنوات، تعمل في منزل ضخم لأحد اللوردات. لقد كتبت كل شيء هنا، وسأكتب طلباً للتزكية.. الرجل الذي كانت تعمل له مات وأصبحت دون عمل، لكنها قالت إن بإمكاني طلب التزكية من ابنته.

ارتفع حاجبا بريندا قليلاً:

ـ هل قلت لها إن هذا المنزل يحتوي فقط على أربع غرف نوم لكن هناك ولدان للرعاية؟

ـ طبعاً.

تركت بريندا منزل أخيها بعد ظهر اليوم التالي، وذهبت إلى شقتها لتأخذ بعض الملابس.. ومن ثم ذهبت إلى منزل كاثلين.. كانت لا تزال متحمسة للحصول على رأي آخر حول المركز.. ورأي كاثلين سوف تقدّره.. تعرف أنها تستطيع التحدث إليها بثقة، ومن المهم الاستماع إلى رأي امرأة.

فتحت كاثلين باب شقتها وهي ترتدي قفازاً مطاطياً ومريلة ملطخة، وابتسامة عريضة على وجهها:

ـ هاي! ادخلي بريندا.. ادخلي! مضى زمن طويل لم أرك فيه! أنا مسرورة لأنك هنا.. فسيعطيني وجودك عذراً للتوقف عن التنظيف!

لحقت بريندا صديقتها إلى المطبخ الصغير، وجلست إلى طاولة الفطور الصغيرة تقول:

ـ لقد اتصلت بك عدة مرات في الأسبوع الفائت.

ملأت كاثلين إبريق الماء وأخرجت فنجاني قهوة.

ـ آه.. حسناً.. لدي أخبار لك! كنت في «ليدز» وسأعود إلى هناك في نهاية الأسبوع المقبل.. سأنتقل أنا وجون إلى ليدز بعد زواجنا! لقد عرضت عليه وظيفة في المكتب الرئيسي.. وظيفة مكتبية! أليس هذا عظيماً؟ هذا يعني أنه لن يسافر كثيراً الآن.. وسيعود إلى المنزل كل ليلة.

ابتسمت بريندا:

ـ إنها أخبار جيدة! ما عدا أنني سأكون آسفة لفقدانك.. سأشتاق إليك.. إذن ستسافران عدة مرات إلى هناك إلى أن تجدا منزلاً، أليس كذلك؟

ـ أجل.. أوه.. هل تحبين تناول سندويش؟

- لا.. شكراً.. وستنتقلان مباشرة بعد الزواج في نهاية شهر تموز؟

مضت النصف ساعة التالية بحديث كاثلين عن خططها، حفلة العرس، خاتمي الزواج.. ونوع الزي الذي ستشتريه بريندا لليوم الكبير..

أخيراً غيرت كاثلين الموضوع، مدركة أنها تكلمت كثيراً عن نفسها.

مالت إلى الأمام تربت يد صديقتها:

- آسفة بريندا.. أنت لم تتفوهي بكلمة، لقد اشتقت إلى رؤيتك وهذه هي المشكلة. أعرف أنني كنت مقتصدة جداً بعدم الخروج معك، لكننا نحاول توفير كل بنس..

- لا بأس في هذا.. أفهم.

- قصي عليّ أخبارك إذن.. سمعت أنك تعملين لسكوت ستيڤن! أمر مثير.. هه؟ وسمعت كذلك أنه غريب الأطوار.

لم تندهش بريندا لقيل وقال الوكالة الذي وصل إلى كاثلين.. فهذا أمر عادي.. لكن الوصف المهين لسكوت ستيڤن أزعجها.. فضاقت عيناها مفكرة:

- إلى من كنت تتكلمين؟ هل قالت لك بيني هذا؟

- لا.. لكنني.. كنت أعمل مع أليكس ماديستون هذا الأسبوع وكان قد أجرى مقابلة مع سكوت ستيڤن.

تنهدت بريندا، أليكس مادهستون انضم إلى وكالة يورك منذ ستة أشهر، وهو على الأرجح أسرع مختزل. صحيح أنه جذاب لكن لا عمق لشخصيته.. بريندا خرجت معه لمرة واحدة وأحست بالضجر.. وقالت لكاثلين:

- مع كل مظهره الجذاب فهو على الأرجح أسوأ رجل التقيته، ولا يمكنه أن يفهم رجلاً مثل سكوت ستيڤن.. لا أستطيع أن أتصور لماذا أرسلته بيني للمقابلة!

- لا أعرف السبب.. لكنني سمعت أن عدة أشخاص أرسلوا إلى هناك.. وسأل اليكس على من حطت المهمة رحالها.. فقلت إنك بدأت

العمل فعلاً منذ أسبوعين.. أوه.. لقد أخبرني أليكس كذلك أن السيد ستيڤن أعمى.. هل هذا صحيح؟

- هذا صحيح جداً.. لكنه ليس غريب الأطوار، أؤكد لك.. إنه غامض قليلاً.. هل سمعت شيئاً آخر عنه؟

- لا.. لا شيء.

إذن ما من أحد ممن قابله عرف أن سكوت ستيڤن هو مارك الرسام.

- اسمعي كاثلين، لا أريد لهذا أن ينتشر، لكن سكوت ستيڤن.. كان.. يُعرف باسم آخر.

- إذن سكوت ستيڤن هو اسم مستعار.. خمنت هذا.

- لا.. أعني بلى. إنه.. ولست أدري إذا كان هذا يعني لك شيئاً، إنه جان مارك.. مارك اسم الشهرة..

ارتفع حاجبا كاثلين إلى الأعلى دهشة:

- الرسام! ذلك الذي فقد بصره! أجل.. بالطبع أعرفه. وأنت لديك لوحة له.. أليس كذلك؟

- إنها نسخة طبق الأصل.. أجل.. في الواقع اسمه الكامل لو ماركيز جان مارك دوباڤندال..

أصغت كاثلين بذهول بينما مضت بريندا تقص عليها كل شيء عن المركيز وأسلوب حياته.. أخيراً قالت بريندا:

- على أي حال.. لا أستطيع تقييمه.. هل لديك أفكار ما؟

صمتت كاثلين برهة تفكر.. ثم:

- لا بد من وجود امرأة متورطة في كل هذا، فهل هو متزوج؟

ابتسمت بريندا:

- ابحثي عن المرأة.. كان لدي فكرة مماثلة.. لكنه في الواقع مطلّق.. ويبدو أن زوجته هربت مع ممثل.. نشرت القصة في الصحف.

- هكذا إذن.. يبدو هذا غريباً.. أليس كذلك؟ أعني أنه جميل المظهر.. وكل شيء لصالحه.. أستطيع أن أرى سبب انجذابك إليه.

غريب كيف أنه قطع نفسه تماماً عن الحياة.. لا يبدو أن عماه يشكل مشكلة كبيرة له.. ومما قلته لي.. فهو يتصرف جيداً.. أتساءل..

ـ ماذا؟

ـ.. لو كان لا زال يحب زوجته؟ يشتاق إليها؟

ـ إليان؟ لا.. لا أظن.. لا.. أعتقد أن هذا ممكن.

قالت كاثلين بحزم:

ـ بل ممكن جداً. يبدو لي هذا منطقياً.. ويبين سبب ما هو عليه الآن.. هل ترغبين في المزيد من القهوة؟

ـ لا.. شكراً. من الأفضل أن أذهب.. لا أريد أن أعود في الظلام.. فهناك خطر أن أضيع! اسمعي، سأعطيك رقم هاتفي.. لكن أرجوك لا تتصلي قبل الحادية عشرة.

سجلت كاثلين رقم الهاتف ووعدت بريندا أن تتصل.

أحست بريندا بإحساس العودة إلى المنزل.. كان الكلبان هناك ينبحان بقوة، أنيابهما بارزة مرعبة. وجاء صوت غريفز الأجش في الانتركوم يتعرف على القادم. لكن بالرغم من «الجنة» الاستقبال، فقد أحست بذلك الإحساس الدافىء بالوصول إلى البيت.. لقد أحبت سيلينا هاوس، فضمن جدرانه وجدت الهدوء، الجمال، والجو الذي لا يمكن وجوده في مكان آخر.

بعد التفكير طوال طريق العودة، صرفت بريندا النظر عن فكرة كاثلين.. جان لا يزال يحب زوجته السابقة؟ لا.. لا يبدو هذا صحيحاً.. لكنها لم تتوقف كي تسأل نفسها لم كل هذا التصميم ولم كل هذا الاهتمام؟

في الوقت الراهن هناك عمل ينتظرها، ومغامرات وايلي اللعين ستلهيها تماماً عن أفكارها.. وأوقفت سيارتها في المرآب الكبير وذهبت فوراً لتعمل.

حين وصلت إلى ردهة أول طابق بعد أن أنهت طباعتها، رأت المركيز

يدخل عبر باب في نهاية الرواق. غرفة كانت تطل على واجهة المنزل. بينما غرف بريندا كانت في المؤخرة.. توقف واستدار بعد أن سمع وقع قدميها بالرغم من وجود السجادة السميكة.

قال: مساء الخير بريندا.

ثم رحل.

لم يسألها كيف حالها، ولا ما إذا كانت قد لاحقت ما تأخر عليها من عمل.. لا شيء.. دخلت غرفتها ورمت نفسها متعبة على مفرش السرير الليلكي.. في ذاكرتها عادت إلى صباح السبت والحديث الذي دار بينهما، تتذكر تمتعه بالطريقة السخيفة التي حاولت فيها وصف دان.. لقد فهمها جان فوراً، فهم الإحساس فيما كانت تحاول إيصاله.. لكن هذا كان حديثهما الوحيد حتى اليوم..

ستكون ملعونة لو دفعها هذا لأن تكون منسحبة متحفظة مثله! هكذا كانت تخبره متى سنحت لها الفرصة، عن الأشياء اللطيفة التي كانت تحدث خلال سيرها في الأراضي المحيطة بالمنزل، مثل الزهور الزعفرانية التي كانت تشق الأرض والنرجس البري بمحاولاته الشجاعة للبقاء بعد ثلج الشهر المتصرم.. أو كانت تخبره إذا خرجت للتفرج على واجهات المحلات، أو أنها حضرت ندوة قراءة شعر اكتشفتها في «بيلتشيلي» أو عن الكتب التي استعارتها من مكتبته.. وبالطبع لم تكن تحصل على رد.. لكنها مع ذلك كانت تستمر في الثرثرة خلال استراحة القهوة مصممة أن لا تصدها تصرفاته، مصممة أن تستمر في أن تكون نفسها.

بعد حوالى الشهر من انتقالها للسكن في «سيلينا هاوس» حدث لقاء قصير خارج ساعات العمل جعلها تدرك أنها كانت تصل إلى المركيز طوال الوقت ولو بطريقة محدودة. كانت الساعة تكاد تصل التاسعة ذات مساء حين خرجت إلى الحديقة. كانت السماء السوداء مرصعة بالنجوم والقمر بدراً فضياً.. التقطت رائحة سيكارة جان قبل أن تستقر عيناها على ظله الأسود.. كانت ساقاه الطويلتان ممدودتين أمامه، يداه داخل جيبه،

جلس دون حراك ضائعاً في أفكاره.

كانت قد رأته هكذا أكثر من مرة، في المكتبة عند الصباح، يفكر، يحدق إلى مسافة بعيدة نحو الظلمة التي تخصه وحده. كانت تعلم في تلك اللحظات أنه لا يفكر بكتابه، لأن عيناه تكونان كليلتين، رماديتين، وتمر ثوان طويلة قبل أن يحس بوجودها.

هكذا كان الآن. جلست إلى جانبه بصمت، تحس بحزنه قبل أن تتكلم:

- السماء جميلة جداً اليوم.

لم يرد.. لم يتحرك.. ثم أدار رأسه نحوها: صحيح للحظات بريندا؟

أكمل بصوت هادىء جداً:

- ارسميها لي إذن بالكلمات.

أحست بالرعب، لأنها لا تريد أن تخذله، غير واثقة بالكلمات..؟ مما يتوقعه منها.

- هيا بريندا.. لا تفكري بالأمر.. لا تحاولي أن تختاري الكلمات.. تكلمي فقط. لديك أجمل طريقة في وصف الأشياء، أتعرفين هذا؟ إنها موهبة! يجب أن تحاولي أن تكتبي عن نفسك، وأعني ما أقول.. أرجوك ارسمي لي المنظر الآن.

وفعلت.. تدفق الكلام منها بسهولة دون وعي. رسمت السكون، الصمت، الأشجار وظلالها، القمر، النجوم، حددت معالم البيوت والأنوار المشعة منها التي تستطيع أن تراها براقة غير متحركة.

في تلك الدقائق القليلة.. أحست أنها سعيدة بشكل لا يصدق... ما أروع أن تتمكن من إعطاء البهجة بمثل هذه السهولة والبساطة.. وما أروع أنه سألها أن تفعل!

كان بإمكانها الاستمرار في الرسم إلى الأبد.. أرادت أن تسير معه في الأراضي كلها حول المنزل، حول العالم، وتصف له كل شيء تراه.

لكن اللحظة السعيدة انتهت بسرعة.. فجأة وقف وتحرك مبتعداً عنها:

- أرجو أن تعذريني الآن.

- جان..؟

- يجب أن أفكر بعمل الغد.. تصبحين على خير.

كان هذا كصفعة على وجهها وتدفقت دموع غبية من عينيها.. راقبته يسير مبتعداً وحزنه ملتف حوله كالعباءة.. كان حديثاً ممتعاً، ولا شك أن مارك الفنان كان يتفجع على لحظات كهذه..

صدمها إدراكها هذا فدفنت وجهها بين يديها اللتان أصبحتا باردتين.

جان مارك رجل لا زال يلبس أثواب الحزن.

أفلتت منها صيحة صغيرة بعد أن بدأ كل شيء، وكل شيء في الانسجام.. ووجدت نفسها فجأة وجهاً لوجه مع أعماق جان مارك.

فكرت بكل التناقضات في حياته، في المنزل المليء بالفن والألوان.. وتصورته يتحرك في المكتبة ويداه تمران بمحبة فوق التماثيل.

إنه حزين على فنه.. كفنان أصيل.. ذلك الذي لن يتمكن أبداً بعد اليوم أن يبدعه طالما هو حي.. ولا أن يشهد هذا المنزل، وجماله، واللوحات التي فيه.. لوحاته.. لقد وضع جان الماضي خلفه، لقد قاطع الجميع، وكل شيء، ما عدا فنه، ما عدا الجمال.. هذه الأشياء لم يتحمل أن يفترق عنها.. لن يستطيع العيش دونها.

إنه يعرف كل إنش من المنزل! يعرفه حقاً.. إنه قادر على رؤية الجمال المحيط به بوضوح يماثل وضوح رؤية بريندا بل أفضل بكثير!

في عتمة نهاية الليل، كانت بريندا لا تزال تفكر به والدموع تتدفق من عينيها.. دموع ليست لأجل جان.. بل لأجل نفسها. استطاعت سماع كلمات دان.. ودوى اتهامه في رأسها.. أنت تقعين في حب هذا الرجل، أليس كذلك؟ وصاحت لنفسها عالياً معترفة: أجل.. أحبه.. أحبه! ولا أبه لشيء البتة! إنها تعرف أن هذا لن يأتيها سوى بتحطيم قلبها لأن جان

مارك لن يشعر بأي شيء نحوها.

كانت تعرف أن هذا سيحدث.. منذ البداية عرفت.. ذلك الإحساس بالإثارة المختلطة بالتململ.

ابتسمت بحزن، تفتح صفحات مذكراتها.. يا لها من تعبيرات ملطفة، وتبريرات، تلك التي استخدمتها خلال أسابيع في جهد لإخفاء مشاعرها الحقيقية نحو جان! ويا له من من أمر سخيف تفعله، تحاول أن تخدع نفسها هكذا.. لماذا لم تعترف أنها بدأت تحبه منذ البداية.. وأن هذا أخافها حتى الموت؟

كونها ستحب جان كان أمراً حتمياً لا يمكن تجنبه، مثله مثل الألم الذي جاء مع هذا الحب.. الاثنان لا يمكن فصلهما لأنها تعرف أن حبها لا طائل منه، محكوم عليه بالاحتراق لأجل رجل لن يحس أبداً بحرارته.

كانت البرودة، العزلة، والتعاسة في داخل جان مارك بعيدة عن الملمس.. لم يكن دفئه الظاهر والحساسية والمرح، حقيقة. كانت مجرد طبقات سمح لها بأن تلمح بعضها لأنها حاولت جاهدة لتحصل على هذه الميزة، لكن هذه الطبقات لم تعد تخدعها. فمن خلفها رجل تخلى عن الحياة بكل بساطة.. رجل لا يهتم بشيء.. أوه.. رجل تجمد قلبه منذ خمس سنوات.

كيف يمكن لفتاة مثلها أن تأمل في إذابة ذلك القلب حتى ولو تمكنت من أن تجد طريقاً تقودها إليه؟ لن تستطيع.

صحيح أنهما خلال الفترات التي تحدثا فيها كان هناك ألفة كبيرة بينهما.. تفاهم غريزي عميق ثم يتراجع بعده فوراً بحدة وكأنه يحس أنه خذل نفسه.. إنه لا يريد الناس، لا يريدهم أن يشهدوا طريقة حياته، انعزاله عن العالم.. جان مارك، بكل بساطة، ليس في حاجة للناس.

لقد فقد بصره، قدرته على الرسم، وها هو الآن غارق في حزنه.. كانت غبية إذا اعتقدت أنه تكيف! لا شيء ولا أحد يمكنه تقديم العزاء لمثل هذا النوع من الفجيعة.. ولا عجب من وجود أوقات تستطيع فيها أن

تشعر بحزنه وكأنه أمر ملموس.

نظرت إلى مذكراتها.. لم تستطع الاعتراف بكل هذه الأفكار على الورق.. إضافة إلى هذا، ما تشعر به نحو جان هش جداً ومعرض للخطر.. وثمين أكثر من أن تصفه في كلمات.. إذن ستترك في الصفحة جملة واحدة فقط.. لن تخاطر فيها بأي تشوبه للمشاعر، للألم، أو لليأس، إذا بقيت ملتزمة برموز اختزالها. وكتبت ببساطة: لوني اليوم هو الأزرق.

* * *

٦ ـ كيف يرى الأعمى!

خلال الأيام التالية، كان على بريندا أن تقوم بجهد عظيم لتظهر وكأنها لم تتغير بأية طريقة. ولم يكن هذا سهلاً.. ذات صباح، استيقظت مع صداع أليم وإحساس بالذعر يتصاعد في حلقها.. نظرت إلى ساعتها.. حوالي ثلاث الرابعة والنصف.. لقد نامت بشكل سيء مرة أخرى.. فلن تنال نوماً هادئاً إلى أن تجد ساعات.. من الأفضل لها أن تنهض.. حلاً لحبها الذي لا ثمرة له نحو جان مارك.. هذا ما عليها أن تفعل.. وإلا فستكون الأشهر المتبقية عنده لا تطاق.

ارتدت بنطلوناً وكنزة سميكة ومررت مشطاً في شعرها، وارتدت «البوط» في قدميها. نزلت السلم بسرعة متجهة إلى الباب الخلفي.. لكن ما كان عليها أن تزعج نفسها بالتسلل بخفة القطة، كان غريفز في المطبخ وهذا يعني أن المركيز مستيقظ أيضاً.

ـ صباح الخير غريفز.

كان يجلس إلى طاولة المطبخ يشرب الشاي ويقرأ، يرتدي بيجاما كحلية مقلمة بشعة، فوقها روب بني.. حاولت بريندا تجنيبه الإحراج بالسير مباشرة إلى خارج باب المطبخ.. لكنه كان قد وقف ما إن دخلت، وكأنها ضبطته يفعل شيئاً شريراً.

سارت وسارت.. إلى أبعد مما سارت من قبل، إلى أن وصلت الغابة في نهاية الأرض.. لكن هذا لم ينفعها كثيراً.. في العتمة، التقطت زهوراً

من حافة الغابة، ثم عادت إلى المنزل حين لم تعد تطيق تحمل الضجيج في صدغيها.

وهي تصعد المرجة في مؤخرة المنزل، رأت الأنوار مضاءة في قاعة بركة السباحة.. صحيح أنها رأت هذا أكثر من مرة، لكنها لم ترَ بعد من يستخدمها.

كان المركيز هناك، يقطع الماء بسرعة خارقة، يسبح طولاً بعد طول.. وقفت بريندا تراقبه.. كانت قريبة بما يكفي لتراه عبر الأبواب الزجاجية، لكنها بعيدة بما يكفي حتى أنه لم يحس بوجودها.

حين خرج من الماء، بلعت ريقها تحس بعقدة ذنب لتطفلها العرضي على خصوصياته..

كان يجب أن تتحرك لتوها.. كان يجب أن تبتعد عن الأنظار كي لا يلمحها غريفز من نافذة المطبخ. لكنها لم تفعل ولم تشعر بأي حرج لهذا وهي تراقبه يقف قرب البركة يبعد الشعر الأسود عن وجهه. لم تع سوى إحساس بالرهبة لجماله الرجولي وهي تتأمله لدقائق طويلة.

كان غريفز يخرج الأطباق من آلة الغسيل.. كان يرتدي ملابسه الآن وقد حلق ذقنه وأصبح مرتباً:

ـ صباح الخير مرة أخرى آنسة توماسن.. لقد استيقظت باكراً اليوم.

ظنت بريندا أنها رأت نظرة الرضى في عينيه.

ـ أجل غريفز.. أيمكن أن تجد لي إناء لهذه الزهور وحبتين من الأسبرين؟

هز رأسه إيجاباً ووضعت بريندا الزهور على رف المغسلة، وأدارت غلاية الماء الكهربائية.

ـ سأحضر لك الشاي والتوست آنسة.

ثم أعطاها قازة كريستالية كبيرة وعلبة أسبرين. قالت:

ـ لا أريد التوست اليوم شكراً.. الشاي فقط، وسأشربه هنا.

ـ مسألة الأسبرين تثير الاهتمام.. سمعت أنك لو وضعت قرصين منه

في الماء، تساعد الزهور على الحياة فترة أطول.

في أي وقت آخر كانت بريندا ستضحك لكنته غير المقصودة.. لكن كان الضحك بعيداً عنها هذا الصباح، وأوضحت له ببساطة سبب طلبها للأسبرين. كانت طريقته في إبداء التعاطف شهقة:

- إذن لهذا خرجت باكراً؟

تنهدت:

- لم أستطع النوم.. هل تستيقظ دائماً في منتصف الليل؟

- لا، آنسة. بل الرابعة والنصف كل يوم.. مسيو مارك يتناول القهوة في غرفة السباحة في الخامسة. ثم يسبح، ويجب تناول الفطور عند السادسة. إذا عذرتني يجب أن أحضر فطوره الآن.

أخذت بريندا أزهارها إلى فوق واستحمت.. يجب أن تحاول التماسك.. لا تريد أن تبدو مختلفة.

لم يساعدها الأسبرين كثيراً.. ومع حلول الثامنة والنصف كان الصداع قد عاد بشدة، بحيث وجدت صعوبة في التركيز على دفتر الاختزال. حين دخل غريفز بالقهوة ابتسمت له شاكرة.. فقد وضع قرصين من الأسبرين على الصينية.. كم هو بارع.. إنها لا تريد أن يعرف جان أن هناك خطب ما، ولن يعرف الآن شيئاً، وهز لها غريفز رأسه باختصار.

لكن جان مارك لم يكن بحاجة لأن يرى الأقراص ليعرف أن هناك شيئاً خاطئاً، فقد أحسّ بالتوتر في بريندا لحظة دخلت الغرفة.. وافتقد حديثها المبهج العادي وقت القهوة.. في الواقع أحس بأنها ليست على ما يرام منذ عدة أيام.

- ما بك بريندا؟ ما الخطب؟

أجفلها الاهتمام القلق في صوته.

- خطب؟ لا شيء.

قال بلهجة تحذير: بريندا..

- أوه.. أنا فقط لا أنام جيداً.. يجب أن آخذ قيلولة بعد الظهر.

- إلى أي مدى هو سيء؟

- ما هو السيء؟

- صداعك، أيتها الفتاة الماكرة! كم هو سيء صداعك؟

ضحكت. يبدو أحياناً كأنه عالم نفسي، ولأنها أحست بحاجة إلى قليل من الارتياح ضحكت.

- جان.. أنا بخير تماماً.. أرجوك لا تقلق.

أصدر لسانه فرقعة عدم رضى، وتركها بحيرة صامتة إلى أن استسلمت:

- حسن جداً! حسن جداً! إنه متواصل!

هز رأسه راضياً: إنهي قهوتك، ثم اذهبي.

- هه؟

قلدها:

- هه؟ إلى الفراش.. اذهبي إلى النوم.

- بالتأكيد لا! لدينا برنامج ومواعيد يجب أن نحافظ عليها ثم لن نستطيع ترك وايلي ينزف دماً حتى الموت في غابة استوائية!

رمى جان رأسه إلى الوراء ضاحكاً.. هذه الفتاة لا يمكن مقاومتها.. اللعنة عليها! اللعنة عليها للطفها، لإخلاصها، لأنوثتها، لجعلها إياه يحس بالحياة أربع ساعات كل يوم..

- هذا غير صحيح.. وايلي سيعيش وتعرفين هذا. يجب أن يعيش ليخبر القصة، وليحارب في يوم آخر.. والآن كفى محاولة لإلهائي! اذهبي ونامي.

على مضض، تركته.. أقفلت الستائر لتمنع نور الصباح واستلقت فوق الفراش.. ما هي إلا دقائق حتى وجدت نفسها تبكي.

لم تقاوم البكاء، تركت نفسها تبكي إلى أن لم يعد هناك مزيد من الدموع.. وساعدها هذا، واسترخى الضغط العصبي قليلاً.

لكنها جسدياً كانت أسوأ بكثير. . كان صدغاها يضجان بشدة ويداها ترتجفان وهي تلتقط الهاتف لتقول لغريفز أنها لن تتناول الغداء اليوم. . أبدى غريفز الاحتجاج مشيراً إلى أن الطعام قد يكون فيه الشفاء. . شكرته بريندا لكنها لم تقبل احتجاجه.

* * *

في المطبخ؛ ساد صمت مطبق بينما كان غريفز ينظر مفكراً إلى سماعة الهاتف. . لقد بدت غريبة جداً. .

ـ حسن جداً غريفز. . شكراً لك. أحسنت في إخباري. . هلا صببت لي القهوة بما أنك هنا؟

كان المركيز يجلس في كرسي مريح قرب النار في غرفة الجلوس. . وبدا غريفز مجفلاً. . قهوة. . وفي هذه الساعة. . يبدو أن الروتين في هذا المنزل قد خُرق. .

ـ لم أرد أن أزعجك مسيو مارك. . لكن الآنسة توماسن بدت شاحبة جداً هذا الصباح. . أعني. . بدت مريضة. أعني أن أقول. . إنها في العادة فتاة لطيفة مرحة!

ـ حسن جداً غريفز. . تابع تحضير الغداء كالعادة. . فالآنسة توماسن ستأكل، ستتناول الغداء معي.

كاد الخادم العجوز الأمين يوقع إبريق القهوة من يده.

ـ أنا. . أنا آسف. . ماذا قلت؟

ـ قلت إن الآنسة توماسن ستتغدى معي اليوم.

ـ معك سيدي؟ أتعني. . في غرفة الطعام. . معك؟

ضحك جان باختصار:

ـ أين غير هناك؟ صب فنجانين من القهوة وضعهما على الطاولة.

لم يقل غريفز أي شيء آخر. فعل ما قيل له وترك الغرفة مشوش الفكر.

أشعل جان سيكارة يتصارع مع نفسه. . يجب أن يذهب إليها. إنه

على الأقل مسؤول ولو جزئياً عن توترها وهذا ما هو واثق منه. . إنها مخلوقة حساسة وقد عاملها بفظاظة. . ولا يمكن لأحد أن يفعل هذا لفتاة مثل بريندا، دون أن يكون لفعلته أي تأثير.

اللعنة! لماذا يجب أن تكون مدركة هكذا وسريعة الحساسية؟ لماذا ليست مثلها مثل سكرتيراته الأخريات، لا يهتممن سوى بثمن الطعام أو الثياب أو يتجاهلنه؟ إنها أكثر حكمة من سنوات عمرها. . متبصرة جداً. إنها لا تلائمه وما كان يجب أن يستخدمها أصلاً.

حتى كتابته تأثرت. . لم يحدث من قبل أن قام بمثل هذا التغيير الكبير في مخطوطاته. . وهذا الأمر بحد ذاته يسبب لها المزيد من الضغط. . لكنها لم تتذمر يوماً، كانت دائماً تقول شيئاً مشجعاً: أوه. . أجل! هكذا أفضل. . لم أدرك هذا حتى قلته. . لكن. .

كانت لها طريقة غريبة في معرفة متى تتكلم ومتى تبقى صامتة. . لم يشعر أبداً من قبل لا في حياته السابقة ولا في الحالية، بمثل هذه الراحة في الصمت المشترك. . اللعنة!

بمقدوره الآن أن يجعلها تشعر أفضل حالاً. . وهو مدين لها بهذا. . لم يكن يريد أن يلمسها. . لا يريد أن يفعل هذا. . فملامستها ستعني في الواقع أن يعرفها، وأن يعرفها ستعني أنه لن ينساها بعد أبداً.

لكن. . هذه مشكلته وسيتدبر أمره بطريقة ما. . حين يأتي وقت رحيلها، سيتمكن، كما في السابق، أن يمحو ذكراها من حياته.

آه. . كم كان على استعداد يوماً أن يتخلى عن الكثير ليعرف فتاة مثلها. . لكن الأوان فاته الآن، وقد تأخر به الوقت كثيراً. . كثيراً جداً.

ظنت بريندا أن غريفز هو الذي يقرع بابها. . فأحست بالتوتر لأنها لا تريده أن يرى وجهها المحمر المبلل. . لكنها لن ترده خائباً دون أن ترد خاصة أنه كان لطيفاً معها هذا الصباح.

نادت:

ـ إذا كنت قد جئت بالشاي غريفز، أتركه خارج الباب أرجوك. أنا

ت مرتدية ملابسي:
انفتح الباب.. وأجفلها الصوت المخملي الدافىء فجلست
ستقيمة.

- جئتك بالقهوة.

- جان! أنا.. أوه..

- لا تجزعي.. لا أستطيع أن أراك، ألا تذكرين؟

كان يقف بالباب وكوب قهوة في كل يد من يديه يبتسم لها.

لم تعرف ما تقول.. كانت صدمة.. هو.. يأتي إليها هكذا..

- أنا.. لست دون ثياب في الواقع.

- آه.. كنت تقولين هذا لأنك لم ترغبي في أن يقتحم أحد خلوتك..
نا آسف.. أعرف هذا الشعور.

- سأجعل من حالتك هذه استثناء لأنك لن تعرف كم أبدو رهيبة.

ضحك ضحكة منخفضة:

- هلا أخذت القهوة مني وأخبريني أين هي الكرسي؟

وقفت بريندا وأخذت منه الكوبين.

- الكرسي قرب طاولة الزينة إلى يسارك مباشرة، على بعد حوالى ثلاثة
أقدام.

انتظرت إلى أن جلس وأعادت له كوبه.

- كيف حدث أنك تتناول القهوة قبل الغداء؟ أنا التي لست على ما
يرام!

تراجعت عنه تراقبه وهو يلاحق صوتها إلى أن جلست على السرير..
كان يتعرف على الغرفة، غرفة لا يمكن أن يكون على معرفة بها..
وأكملت:

- آسفة.. كنت أمازحك.. أنا في الواقع على ما يرام.

- هناك زهور في غرفتك؟

- أجل، إنها أمامك مباشرة على حافة النافذة.. لكن الستائر مقفلة

ويدهشني أنك شممت رائحتها.

وقفت مجدداً واستمرت في الثرثرة بتوتر:

- سأفتح الستائر.. التقطت الزهور من الغابة هذا الصباح.. لقد استيقظت باكراً اليوم.. وأنا..

رفع جان يده يسكتها:

- بريندا.. أرجوك أن تسترخي! لا تحاولي أن تكوني مبتهجة مرحة وأنت تشعرين بالحزن، فأنت لا تخدعين أحداً.

جلست مجدداً تحتسي القهوة علها تعطيها القدرة على أن تتصرف بشكل طبيعي.. لكن هذا ليس بالأمر السهل، خاصة وأنها قد اعترفت لنفسها أنها تحبه.. لقد أفسدت عليه يومه وهو هنا الآن ليقول لها شيئاً عن عملها.

- أنا آسفة بشأن الإملاء جان.. لكن بالإمكان التعويض في الغد بكل تأكيد.

أحزنته ملاحظتها.. هل تظن فعلاً أنه هنا ليحدثها عن شيء لا أهمية له؟ أم أنها تتكلم لأنها بريندا المهتمة المفكرة بمصلحته دائماً؟

- أنا لست هنا لأتحدث عن العمل.

- إذن.. لماذا أنت هنا؟

- هل ستصعبين الأمر عليّ؟ ليس من السهل أن أعتذر، وتعرفين هذا.. الاعتذار ليس سهلاً لرجل مثلي.

قطبت.. مسرورة لكن مرتبكة قليلاً:

- وكيف يكون رجل مثلك.. جان؟

- رجل نسي أخلاقه الحميدة.. لأنه ببساطة لم يحتج إليها منذ زمن طويل.. رجل لم يعتذر من قبل أبداً عن تصرفه.. تصرف بدا بارداً دون لزوم.

وشرب قليلاً من قهوته.

بدا من الواضح أن هذا ليس سهلاً عليه.. كان يمنحها لمحة عن طبقة

خرى من طبقات نفسه.. لكن ماذا تعني هذه الطبقة؟ ما قيمتها؟ القليل جداً.

أغمضت بريندا عينيها وشدتهما بقوة أمام اندفاع موجة جديدة من الدموع.. يا إلهي.. لا تدعني أظهر أية مشاعر، فسيحس بها، سيسمعها، ستصل إليه عبر المسافة التي تفصلنا.. وأنا لا أريد لهذا أن يحدث.

تنحنحت:

- هناك تناقض ما في مكان ما.. إذا كنت متبصرة كما تظن، فأنا بالتأكيد سأفهم تصرفك!

ولكونها غبية، ظنت نفسها قادرة أن تتحداه، ظنت أنها ستتمكن من أن تقول له إنها تعرف كل أسراره.. وإنه في أعماقه لا يهتم بشيء أو بأحد. لكنها لم تستطع.. فهذا لن يؤلمه، لكنه سيتسبب لها بألم أكبر من أن تتحمله الآن. بدلاً من قول أي شيء، تمسكت بصمتها.. فهناك أمان في الصمت.

هز كتفيه:

- أستطيع القول إنك تفهمينه إلى حدود ما.. لكن فهم معاملتي السيئة لك لا يعني أنها تعجبك لقد سمعت الألم في صوتك الآن للتو، وسمعته الكثير من المرات من قبل. وأنا أعتذر لأنني لم أفعل شيئاً يجعلك مرتاحة في منزلك المؤقت.. وعدا هذا حملتك عملاً إضافياً في الأسبوع الماضي.. وأنا واثق أن كل هذا ساهم في إحساسك بالتوتر اليوم.. بريندا، هل ستظهرين لي أنك قبلت اعتذاري بأن تتناولي الغداء معي اليوم.

استقبلت الاعتذار والدعوة بمشاعر مختلطة جداً.. فجأة أرادت استبقاء الحواجز بينهما.. لم تعد تريد فرصة لتقترب منه، بعد أن تبين لها أنه جامد صلب.. بعد أن عرفت أن رحلتها إليه ستكون مؤلمة ودون جدوى.

أغمضت عينيها دون إرادة منها هذه المرة:

- سأكون مغتبطة جداً بأن أتناول الغداء معك.

وعلى الفور أخذت تبرر نفسها.. لقد قبلت الدعوة لأن كرامته كانت على المحك.. ثم إنه اعتذر.. ألم يفعل؟ فكيف يمكنها أن ترفض؟

- ماذا أنت مرتدية بريندا؟ فستان، تنورة.. أم ماذا؟

فتحت عينيها، لم تسمع كلمة..

- أنا آسفة.. ماذا قلت؟

- سوف أدلك لك رأسك لأزيل صداعك.. وهذه هي المرحلة رقم اثنين لأجعل بريندا أفضل حالاً.. تعالي اجلسي هنا.

- لا تكن سخيفاً..! قلت لك إنني تحسنت! وكثيراً!

كان قلبها يخفق كالمجنون.. والذعر يجعل صوتها يخرج بحدة..

قال ببساطة:

- أنت كاذبة! الحياء مع رجل أعمى أمر سخيف.. ألا تعتقدين هذا؟ هيا.. ضعي نفسك بين يديّ.. وسيزول صداعك في خمس دقائق.

بينما كان ينتظرها لتتحرك، انتظرت هي الإلهام.. ماذا يمكن أن تقول؟

بيدين مرتجفتين وساقين تحولتا فجأة إلى رصاص ثقيل، أجبرت نفسها على التحرك نحوه. جلست متوترة على الكرسي الذي كان يحتله، بينما استدار هو إلى خلفها، وهي تشعر أن هذا سيزيد التوتر داخلها.

لكن هذا لم يحدث.. وأخذت الأصابع الطويلة القوية تعمل على العضلات الناعمة فوق كتفيها بلمسات لم تكن لطيفة.. جست أصابعه، دعكت، لاطفت، وما هي إلا لحظات حتى أحست بريندا بالفائدة. كان يعطيها تعليمات بين الفينة والفينة وهو يعمل بخبرة ما كان يجب أن تدهشها.

- دعي رأسك يتجه إلى الأمام.. دعيه الآن يرتاح فوق يديّ.

أخذ يحرك رأسها من جانب إلى آخر.. ثم دلك الفقرات العليا من

عنقها بحركات دائرة مريحة أزالت منها كل ذرة توتر.

توقفت يداه بخفة على كتفيها:

ـ أفضل حالاً؟

ـ أوه.. أجل..! شكراً لك!

دون تفكير، ارتفعت يدها تغطي يده بخفة في إيماءة امتنان. فأمسك يدها بين يديه، وتحرك إلى الأمام يجذبها بلطف لتقف..

لم ينطقا بكلمة وهي تقف ترفع نظرها إليه.. أسيرة في دائرة هالة الجاذبية المطلقة التي تنبعث منه، والتي ملأت الغرفة.. حين يكون جان مارك موجوداً، هناك دائماً نوع من السحر في الجو.. بالنسبة لبريندا، حتى هذا الحزن فيه يشدها كالمغنطيس:

امتدت يداه تحيطان بوجهها.. الأصابع الباردة كترياق شافي لبشرتها المحمرة.. وتحركت أصابعه بخفة فوق بنية وجهها، تلاحق الخط من ذقنها إلى الاستدارة الناعمة لفكها، إلى صدغيها، ثم جبهتها. ولم تستطع بريندا إخراج صوت حتى ولو أرادت.. بل رحبت بلمسته، فهذا هو جان يقول: مرحباً، ويراها لأول مرة.

حاولت أن لا تفهم شيئاً آخر مما يفعل. لكن حركات أصابعه فجأة أصبحت مثيرة جداً لتحركها فوق شفتيها، فأطبقت جفنيها.. لا شيء الآن يفصل بينهما، لا مسافة، لا كلمات، كانت على وجهه تلك النظرة المركزة المألوفة. عيناه مغمضتان.. وقلبها يخفق بصوت مرتفع حتى أنها خشيت أن يكسر صوته سحر اللحظة. كان هذا أكثر مما تستطيع تتحمل.

ـ جان.. أرجوك..

فتح عينيه فوراً، تتطلعان إليها باعتذار صامت. وابتسامة حزينة تشدّ أطراف فمه:

ـ أنت لطيفة جداً.. بريندا.. وجميلة جداً.

وابتعد عنها.

صاحت متألمة:

ـ أوه! لا! لا تقل هذا.. أنا لست جميلة جان.. أنا لست جميلة!

فتح الباب ثم استدار يواجهها بابتسامة:

ـ آه.. عزيزتي بريندا.. ألم تعلمي بعد أن الجمال في الإنسان يأتي من أكثر من مصدر؟

غاصت في سريرها.. لطيفة.. إنه هو اللطيف الذي جاء لزيارتها ليحاول أن يجعلها أفضل حالاً.

لقد جاء الوقت الذي يجب أن تعطي فيه.. أدركت هذا الآن.. منذ اعترافها لنفسها بمشاعرها نحوه لم تهتم سوى بنفسها، بمشاعرها، ولم تتوقف لتأخذ في عين الاعتبار ما يمكن أن تفعله لأجله.

إنه معجب بها، هذا ما هي متأكدة منه.. وإلا لماذا أزعج نفسه هكذا؟ حسن جداً، قد يكون فعل هذا لأنه ظنها غير راضية، وأنه يواجه خطر خسارته لسكرتيرة جيدة. صحيح أن هذا ليس كل ما ترغب به لكنه كل ما حصلت عليه.. وستحاول جهدها كي تظهر له أن الحياة تستحق أن تعاش.

يجب أن تدفعه إلى الحياة مجدداً.. يجب أن تُظهر له أن بإمكانه أن يكون سعيداً حتى ولو لم يستطع أن يرسم.. إنه عمل شاق طويل في الواقع.. ويكاد يكون مستحيلاً.. لكن عليها أن تجرب.. يجب أن تجرب. ثم أليس هذا هو الحب؟ العطاء.. لسوف تفعل أي شيء لمن تحبه، وهي تحب جان أكثر من أي شيء في العالم.

من الآن وصاعداً لن تتوقف لحظة لتفكر بنفسها.. ستفكر فقط به..

إذا كان هناك أوقات تحتاج فيها إلى استخدام شيء من المكر أو إلى التخلي عن كبريائها، فستفعل، ستفعل أي شيء لإزالة الثلج عن قلبه المتجلد. وستفعل هذا.. باسم الحب.

* * *

٧ ـ مقاومة!

أمّن لها تناول الغداء مع المركيز أول فرصة حقيقية لمعرفة شيء عنه.. تحدثا عن نفسيهما، مجرد تفاصيل عامة جعلت الحديث يجري بسهولة.. وأدركت بريندا غرابة أن تعرف القليل عن جان في وقت تعرفه فيه جيداً.. كان الأمر وكأنها تتناول الغداء مع صديق حميم لم تره منذ عشرين سنة..

أكد جان لها أنه فعلاً نصف إنكليزي لجهة أمه، لكنه تربى وتعلم في باريس.

سألته: كيف اخترت أن تعيش في انكلترا؟

ـ ورثت هذا المنزل عن والديّ.. تركته لهما جدتي لأمي، اللايدي والتري. لقد تقاعد والداي هنا منذ كنت في العشرين من عمري.. كنت في الجامعة ولم يكن لدي الرغبة في ترك فرنسا.. أمضت أمي خمساً وعشرين سنة في باريس مع أبي، ولطالما وعدت نفسها بأن تنهي أيامها في بلدها انكلترا.. وهذا ما فعلته. لطالما أحببت هذا المنزل.. كنت أجيء دائماً لأزور والديّ. الكثير من عطلات طفولتي كنا نقضيها هنا، وأنا أعرف كل إنش من المكان.. وأحببت انكلترا دائماً.. لذا بدا لي من المنطقي أن أعود لأعيش هنا في مكان مألوف جداً وأحبه، بعد أن فقدت بصري.

كان هناك ثغرات في القصة طبعاً.. فبالتأكيد أن منزله في باريس

مألوف كذلك له ويحبه؟ فلماذا انتقل إلى هنا؟ ربما بتركه باريس، ترك وراءه ماضيه كرسام... وماذا عن زوجته؟ هل كانت معه هنا في أيامهما الأولى؟ لم يذكرها جان ولن تجرؤ بريندا أبداً أن تطرق هذا الموضوع الخاص.. فهي تخوض الكلام معه بحذر.

ـ ماذا عن أقربائك؟ لا بد أن لديك عائلة على كلا الجانبين من القناة.. فلماذا لا يزورونك؟

هز كتفيه بعدم اكتراث:

ـ كانوا يزورونني في البداية، لكنهم واحد إثر الآخر فهموا الرسالة بأنني لا أريد أي تطفل.

ـ الآن.. من يحاول المخادعة؟ أنت تعني أنك أفزعتهم واحداً إثر الآخر!

ابتسم ابتسامة عريضة:

ـ حسن جداً.. واحداً واحداً أخفتهم.

ـ وماذا عن غريفز؟ أين موقعه وسط كل هذا؟

ـ أوه.. لقد جاء غريفز إلى الخدمة وهو في الرابعة عشرة، وهو الآن في الرابعة والستين.. هل تصدقين هذا؟ عمل لجدتي، ثم لوالديّ.. حين ورثت المكان أخذته معي إلى باريس.. وأقفلنا القصر هنا بعد موت والديّ، وبقي معي ثلاث سنوات قبل الحادثة.. بعد الحادثة عدنا إلى هنا.. و.. تعرفين الباقي.

تعرف الباقي؟ لا زال لم يذكر زوجته بعد!

دخل غريفز يحمل صينية عليها قصعة كبيرة من سلطة الفاكهة الطازجة، أطباق، ومرطبان من الكريما.. وضع كل شيء على الطاولة بدقة شديدة، يقول لسيده ما جاء به وأين وضع كل شيء.. وسكبت بريندا الفاكهة، تلاحظ نظرة الموافقة من غريفز وهي تعيد كل شيء إلى مكانه ووضعه الأصلي.

وقال جان:

ـ كنت أقول لتوي للآنسة توماسن، إنك مع العائلة منذ كنت في الرابعة عشرة.. أليس هذا صحيحاً غريفز؟

كانت النظرة التي رمقها بها غريفز نظرة ذهول: حقاً؟ وكأنما ظنها قد حققت إنجازاً مذهلاً باجتذابها مثل هذه المعلومات منه.. فغمزت له بمكر، ولم يعرف غريفز كيف يتصرف.

ابتسمت بريندا.. إذن فهو ليس ذلك الغامض على أي حال!

ـ أوه.. هذا صحيح مسيو.. تركت المدرسة في الرابعة عشرة وأخذتني اللايدي والتري عندها.. بالطبع في تلك الأيام كان لدينا الكثير من العمال في المنزل.. كان جداك دائماً يقيمان حفلات كثيرة، ولا يمر وقت دون أن يبقى في المنزل ضيوف.. بما فيهم أنت.. سيدي.

أنهى خطبته وغادر الغرفة بوقار كما دخل.

ـ وماذا كان والدك يعمل، جان؟ أعني في باريس قبل تقاعده؟

كشر المركيز قليلاً.

ـ كان سياسياً.. خلال الحرب كان رمزاً قيادياً في المقاومة الفرنسية.

ثار إعجاب بريندا في الحال:

ـ حقاً؟ لا شك أنك سمعت قصصاً عن هذا.. هل حصلت على أفكارٍ لكتبك منها؟ من مغامرات والدك خلال الحرب؟

ـ بعضها أجل ومن قصص غريفز أثناء الحرب.. لقد شاهد الكثير من المعارك.. وصدقي أو لا تصدقي، إنه راوية ممتاز.

لم تستطع إلا أن تضحك..

ـ لا لن أصدق!

ثم اعترفت له بالاسم المستعار الذي أطلقته على غريفز، فضحك جان وقال:

ـ إن غريفز رجل حريص جداً ولا يثق بأحد بسهولة.

ـ ولا أنت.

ساد صمت طويل لكنه لم يكن صمتاً مربكاً.. ترك جان الصمت

معلقاً بينهما وأدركت بريندا أنه تحذير.. بإمكانها الوصول إلى هنا دون المزيد.. وقبلت بهذا.. للوقت الحاضر.

حين عاد إلى الكلام، غيّر الموضوع بالكامل. بدأ يسأل بريندا عن نفسها، عن طفولتها ووالديها.

بعد الغداء ذهبت بريندا إلى غرفتها لتحصل على النوم الذي تحتاجه كثيراً.. كانت الساعة الخامسة حين استيقظت، كان الألم لا زال موجوداً، وفي قلبها سيبقى.. لكن على الأقل ها هي تتعلم كيف تعيش معه. لقد حققت تقدماً بسيطاً نحو الوعد الذي قطعته لنفسها.

استحمت وارتدت البنطلون والكنزة، اللتان لبستهما في ساعات الفجر الأولى.. هل جمعت الزهور من الغابة اليوم بالذات؟ يبدو لها أن هذا كان منذ أسبوع مضى!

حين وصلت منتصف السلم، وقفت مسمّرة مكانها. من غرفة الجلوس، تناهى إليها صوت البيانو بمعزوفة لشوبان. إنها تعرفها جيداً، تلك القطعة المعروفة باسم «في أعماق الليل». لكنها لم تسمع أبداً بمثل هذه الحدة في الموسيقى.

لم يكن هذا ما أوقفها.. بل كان غريفز.. كان يقف في الردهة، خارج الباب الموصد لغرفة الجلوس، حين ظهرت بريندا استدار ببطء وابتسم لها.. ابتسامة فعلية!

على الفور ارتبكت واغتبطت.. الابتسامة من غريفز إطراء كبير في الواقع.. لكن لم يكن لديها فكرة عن سبب هذا الشرف.. ثم رفع إصبعه إلى شفتيه، يشير إليها نحو المطبخ.

لحقت به دون كلمة، لا تفهم أبداً تصرفه الغريب. حين وصلا إلى داخل المطبخ همست له:

ـ ما الأمر؟ لقد سمعت المركيز يستمع إلى التسجيلات من قبل.. لماذا تبدو عليه السعادة هكذا؟

ـ هذا ليس تسجيلاً آنسة.

استدار عنها يعرض صنع الشاي، لكن بريندا أمسكت ذراعه:

ـ هل هو مسيو مارك؟ ماذا يعني هذا غريفز؟ أخبرني.. أرجوك!

هز كتفيه، وأحناهما إلى الأمام دليل ارتباك.

ـ لست واثقاً.. كل ما أستطيع قوله لك إنه لم يلمس البيانو منذ خمس سنوات.

حدقت بريندا به:

ـ هذا رائع! أرجوك، أريدك أن تخبرني شيئاً.. وأرجوك لا تراوغني.. أرجوك، ثق بي.. ما الذي حدث مع زوجته.. الطلاق؟

لكن غريفز لم يصغ إلى شيء من هذا.. فقد عادت الستائر فوق وجهه واستدار بعيداً عنها.

ـ سأصنع الشاي.. لدي بعض الكايك بالكريما في البراد.. أتحبين تناول واحدة.. آنسة؟

غاصت بريندا في كرسي المطبخ.. المحاولة كانت تستحق العناء.. لكنها كانت تتوقع الكثير منه.. وأجبرت نفسها على المرح.

ـ لا.. شكراً.. لقد زاد وزني مؤخراً.

ظنت أنه تمتم شيئاً حول الطعام. وقالت:

ـ ألن تنضم إليّ في شرب الشاي غريفز؟ أنت دائماً مشغول. ألا يمكنك الراحة عشر دقائق؟

ـ لا أمانع أبداً آنسة.

بعد استقرارهما حول طاولة المطبخ.. حاولت مرة أخرى. كانت الموسيقى قد تغيرت، لكن طالما هي مستمرة تبقى بأمان.

ـ ماذا حدث وقت الحادثة؟ أعني هل تعرف التفاصيل؟ لم أقرأ الكثير عنها في الصحف.

أطلق غريفز نفساً طويلاً بطيئاً.. وخشيت أن يكون هذا دليل نفاد صبره معها.. ثم ذهلت لرده:

ـ طبعاً أعرف التفاصيل. كنت في الطائرة معه.

ـ أوه! أوه.. أنا آسفة.. لم يكن لدي فكرة.

ـ لا بأس في هذا.. لقد حلمت بما جرى طويلاً. ولم يعد يزعجني الكلام عنه.. كانت طائرة صغيرة خاصة.. كنا نطير من باريس إلى لندن لإجراء مقابلة حول أول معرض لمارك هنا.. كنا نحن الاثنان فقط والطيار.. وحدث تسرب للوقود.. طبعاً الطيار لم يعرف بهذا، كان هناك خطأ ما بالعدادات ولم تسجل النقص.. بدأ المحرك يتقطع وفعل اللعين المسكين.. عفواً.. الطيار كل ما يستطيع لينزلنا سالمين.. وحطت بنا الطائرة في حقل في «ديفون» وتحطمت. مسيو جان لم يصب بأذى تقريباً.. أما أنا فعلقت.. وعرفت أن ساقي كسرت. كانت ملتوية وعالقة تحت مقعدي ولم أكن أشعر بها.. وحررني المركيز.. جرني بعيداً عن الحطام قبل أن تنفجر الطائرة اللعينة وتشتعل.. بعد أن أوصلني عاد إلى الطيار.. فصحت به.. مرات ومرات صحت له أن يعود.. لكنه لم يسمعني أو أنه تجاهلني.. لكنه لم ينجح بأي حال، حين وصل على بعد أمتار، حصل انفجار هائل كاد يكلفه حياته، عدا بصره.

ساد صمت رهيب، والاثنان يتصوران ما حدث..

ـ لقد شاهدت.. الانفجار.. بالطبع؟

ـ أجل آنسة.. لكن المسألة لم تكن هكذا فقط.. كان الطيار ميتاً.. مسيو مارك لم يكن يعرف.. لكنني رأيت وجهه.. نظرت إلى قناع الموت عليه قبل أن يجرني المركيز.

كانت الموسيقى الناعمة لا تزال تتناهى إلى المطبخ.. ولم يتحرك غريفز.. بينما غطت بريندا وجهها بيديها، وأبقتهما هكذا مع استقرار معاني كلام غريفز في رأسها.

مر وقت طويل قبل أن تجد صوتها:

ـ أليس هناك أمل أبداً؟ بصره.. أعني. هل قالوا له شيئاً؟ ماذا عن المستقبل؟ جراحة ربما؟ ألم يعطوه أي أمل؟

ـ لقد تكيف مع الوضع الآن.. وعاش معه خمس سنوات.

- هذا لا يرد على سؤالي.

نظر الخادم العجوز إليها وكأن يخاف أن يقول:

- حسناً. بعد سنتين من الحادثة، تلقى رسالة.. قرأتها له. كانت من بروفسور سويسري، صديق قديم للعائلة.. إنه رائد في التقنيات الحديثة. أخصائي عيون.. طلب من المسيو الذهاب إلى عيادته في سويسرا لإجراء فحوص.. لكنه لم يعده بشيء طبعاً. طلب فقط فحص المركيز.

مالت إلى الأمام متلهفة: حسناً؟ ماذا حدث؟

نظرت إليها العينان الدامعتان بعجز:

- رمى الرسالة في النار.

- ماذا؟ لم يذهب؟ لم يحاول معرفة ما إذا..؟

- بعد أسبوعين، أرسل ابن عم له إلى سويسرا لإيصال لوحة. كانت أمراً عجيباً، لم يرسل رداً، بل إحدى لوحاته فقط. وكانت إحدى أشهر لوحاته كذلك. تلك التي في البستان، تعرفينها.

- أعرفها.. لدي نسخة عنها في شقتي. وهل كانت هذه نهاية المسألة؟

- ليس تماماً. وصلت رسالة أخرى من البروفسور بعد أسبوع تقريباً.. كانت.. كانت دفقاً من التهجمات جعلت المركيز يضحك.. ويمكنك معرفة ما حل بها.. لكن البروفسور لم يستسلم. اتصل به بعد شهر تقريباً. وبالطبع لم أعرف ماذا جرى.

- ألم يحصل اتصال منذ ذلك الوقت؟

- ولا كلمة.

اشتدت يداها إلى قبضتين.

- لا أفهم، غريفز.. أنا لا أفهم.

- حسن جداً.. أنا أفهم. لم يعرض البروفسور شيئاً أكثر من فحص عادي.. لكن المركيز كان قد كيف نفسه، ولن يسمح لنفسه أن

تأمل.. إضافة إلى هذا، فالمستشفى في لندن قالت له دون مواربة أن لا أمل أبداً. لذا أستطيع الفهم.. أنا.. حاولت الحديث معه في ذلك الوقت، آنسة، لكنه كاد يكسر رأسي.. قال إن هذا شيء يعرفه.. في أعماقه.. وإنه سيبقى أعمى لما تبقى من حياته.

نظرت إليه بريندا بعجز، ومحبة:

- أنت لا تمضي أيامك بيسر هنا.. أنت في الخدمة سبع ليال في الأسبوع.. لكن هل أنت باق هنا لأن المركيز أنقذ حياتك؟

- أوه لا.. آنسة! ولو كان المركيز يظن هذا بي لما سمح لي بخدمته.. أنا باق لأنني كنت دائماً مخلصاً للعائلة.. ويعرف هذا.

انسحب جان مجدداً إلى عالمه الخاص.. لكن بريندا كانت تتوقع هذا وضاعفت جهدها للتواصل معه، للوصول إليه. بقيت في المنزل نهاية الأسبوع، وتمكنت أن تنضم إليه في نزهة قصيرة، لكنه بقي على مسافة منها حتى وهما جنباً إلى جنب.

مع انطواء الأيام بدا لها أنها تحارب معركة خاسرة؛ كان المركيز يقاومها في كل إنش من الطريق.. أسقمها كشف غريفز لها، وزاد عمق حبها لجان مع كل يوم يمر.. وما من مرة ارتبكت في المهمة المستحيلة التي حددتها لنفسها.

في نهاية الأسبوع التالي، عادت إلى شقتها لتأخذ بريدها وبضع فواتير، وشيك الراتب من الوكالة، وبرنامج الشهر القادم للأوبرا.. نفضت الشقة وغسلت ما يلزم وكوته.. أصبحت كل ملابسها الآن، تقريباً، في «سيلينا هاوس» مع أكثر اسطواناتها وتسجيلاتها.

ذهبت إلى منزل دان، والتقت مدبرة المنزل الاسكتلندية التي استخدمها دان واستقرت وكأنها في منزلها في غرفة الضيوف. واضطرت بريندا أن تنام في غرفة ابن أخيها، لكنها لم تمانع في هذا بل كانت مبتهجة جداً لأن مدبرة المنزل لطيفة جداً وواضح أنها ناجحة جداً مع دان والولدين.

السيدة ماكفرايد، أو داغمار كما تفضل أن تنادى، امرأة في أوائل الأربعين ولها ابن. ترملت حين كان الصبي في الثالثة من عمره، وأمضت كل سنواتها التالية مدبرة منزل. ابنها الآن في الثامنة عشرة، ويدرس في جامعة في لندن حيث يتدرب ليصبح طبيباً.. وداغمار فخورة جداً به.

بدا دان أكثر استرخاء الآن وقد خف الضغط عنه.. وسرّ بريندا أن ترى هذا.. أن تراه يأكل جيداً ويتفق مع مدبرة منزله. في ستة أسابيع تغيرت حياته كثيراً نحو الأفضل.. ستة أسابيع؟ هل مضت حقاً ستة أسابيع منذ ذلك اليوم المصيري الذي دخلت فيه مكتبة المركيز جان مارك دوبافيندال؟ التفكير بكم يمكن أن يحدث في مثل هذه البرهة القصيرة أمر مذهل، بل مخيف.

أقبل شهر نيسان على نهايته، والطبيعة تأخذ مجراها بشكل جميل.. كانت الحدائق في منزل المركيز مليئة بالزهور.. وتشوقت بريندا لرؤية حديقة الورود في قمة إزهارها.. ووعدت نفسها أن تسير عبرها مع جان وترسم له بالكلمات كل شيء تراه.. كم كانت تشوق لهذا!

كوفيء صبر بريندا حين طلب منها المركيز أخيراً أن تتناول العشاء معه. كانا يعملان منذ نصف ساعة تقريباً، وبدا في مزاج نكد بحيث أن آخر شيء توقعته كان الدعوة للعشاء.

كانت تقرأ له عالياً إملاء اليوم السابق.. وكالعادة كانت تكاد تمثّل المشهد.. تضع ما تعتقد أنه الإحساس الملائم للكلمات.

- توقفي!

أمر المركيز رفع رأسها بحدة: آسفة؟

- قلت توقفي! واشطبي الجملة الأخيرة.. بل الصفحة كلها.. إنها كلام سخيف!

أجفلت بريندا:

- أوه..! أظن من العيب أن تشطبها.. وايلي مستغرق في الذكريات وهذا ما يجعله إنساناً أكثر...

- هذا ليس من طبيعته... ليس من المفروض أن يكون إنسانياً. إلغيها!

أدار كرسيه ليواجه النافذة.

وانتظرت بريندا.. انتظرت.

- لقد فعلت ما طلبت جان.. وأنا مستعدة، إذا كنت أنت مستعداً.

استدار ونظرة اعتذار على وجهه:

- بريندا.. هل تتناولين العشاء معي الليلة؟

- أجل.. سأكون مسرورة جداً.

بدا عليه الشك:

- حقاً.. بريندا؟ أعني ألا..

دخل غريفز ودهشت بريندا للمقاطعة، وانزعج المركيز:

- ما الأمر غريفز؟

- أنا آسف مسيو مارك، لكن الناشر على الهاتف. يقول إن الأمر طارىء.

نظر غريفز إلى بريندا بتساؤل، فهزت كتفيها دلالة عدم إدراك، فهي لم تستطع فهم سبب إظهار جان لمشاعره.

- وماذا يريد في مثل هذه الساعة؟ لا تكاد تصل إلى الثامنة.. لا بد أنه يعرف أنني أعمل الآن!

- لقد اعتذر لهذا وقال شيئاً عن اضطراره للسفر اليوم.

- حسن جداً.. سآخذ المكالمة في مكتب بريندا.. قل له أن ينتظر.

مع خروج غريفز، استدار جان إلى بريندا.

- بريندا، ارتاحي اليوم.. لا أستطيع الكتابة.. أنا لست في مزاج مناسب.. اخرجي في نزهة في السيارة أو أي شيء.. سأراك في غرفة الجلوس في السابعة مساء.

- طبعاً.

كانت محتارة، لكنها لن تُظهر له هذا.. وقفت متجهة إلى الباب..

فاجأها بالقول: بريندا . . ارتدي شيئاً جميلاً.

أرتدي شيئاً جميلاً . . ؟

وأصبحت الآن أكثر ارتباكاً!

* * *

٨ ـ ليلة بلون الورد

حين التقته في غرفة الجلوس، تلاشى بعض من ارتباكها، كان جان يقف قرب المدفئة، يرتدي ثياب سهرة، ويبدو فائق الأناقة في سترة من المخمل بلون أحمر داكن وقميص أبيض مزركش. . بدت كل ذرة فيه أرستقراطية. . ومع لمسات الفضة في شعره، بدا مميزاً ووقور جداً.

ما إن رأته بريندا حتى أحست بانقباض في حلقها. كم تحبه. . وسيم، موهوب. . وبعيد المنال.

عند سماعه لها، استدار فوراً يتقدم إليها ويمسك بيديها:

ـ بريندا. . تشرفني صحبتك.

ضحكت بخجل:

ـ أظن أن الشرف لي! هل ترتدي دائماً بمثل هذه الروعة للعشاء؟

ـ آه. . لا! أغيّر دائماً بالطبع. لكنني لا أبالغ هكذا عادة.

ـ إذن، لمَ الليلة؟

ـ الليلة مميزة، اليوم هو أول أيام شهر أيار.

ـ وماذا. . ؟

ـ إنه عيد ميلادك. . أليس كذلك؟

أحست بالسعادة وخيبة الأمل معاً. . سرّها أنه تذكر عيد ميلادها. . وخاب أملها لأن دعوته لها كانت بداعي الواجب وليس رغبة في صحبتها.

صب لها كوب مرطبات، وتمنى لها السعادة، ثم كان هناك خطبة

قصيرة بالفرنسية مرت دون أن تفهمها.

ضحكت بريندا:

ـ أوه.. يا إلهي! أنا لا أفهم ماذا تقول لكني واثقة أنه قول لطيف.

ـ أنا أتمنى لك الصحة الجيدة مع إكمالك الرابعة والعشرين، وأتمنى لك سنوات عديدة قادمة.

أشار إليها نحو الأريكة الأقرب إلى النار وجلس إلى جانبها:

ـ لا بد أنك تعلمت الفرنسية في المدرسة. أخبريني.. كم هي جيدة فرنسيتك؟

اختارت ردها بدقة، تتذكر جيداً جملته الافتتاحية في مقابلتهما الأولى.

ـ متوسطة.

فهم ما تعني على الفور وضحك بصوت مرتفع:

ـ أوه بريندا! لا تكوني متوسطة أبداً.. إذا أردت فعل شيء.. أي شيء.. يجب أن يكون كاملاً!

ـ فكرة جيدة! لكن، عزيزي جان، لسنا كلنا موهوبين مثلك.

قال وهو لا يزال يضحك:

ـ هناك طريقة وحيدة لتعلم الفرنسية.. الذهاب إلى فرنسا! أخبريني هل زرت يوماً باريس؟

ـ لا.. لم أذهب أبداً إلى فرنسا.

وضع يده على قلبه وكأنها جرحته:

ـ هذا رهيب! رهيب! ويجب أن نفعل شيئاً.. يجب أن تفعلي شيئاً.

انتقل مرحه إليها، فاسترخت سعيدة.. وما هي إلا لحظات، حتى دفعها جان لتتكلم عن نفسها مجدداً.

ـ قلت لي مرة إن والديك فكرا أن يوجهاك إلى المسرح وأنت صغيرة.. فماذا حدث؟

ـ لا شيء.. كبرت.. وهذا كل شيء! وبدا من الواضح ساعتها أن

ليس لدي الجمال ولا الموهبة لعالم الأضواء.. وكما قلت لك، أنا لست ذلك الجمال الذي تفكر به.

كان من المهم لها أن تؤكد على هذا، فهي لا تريده أن يتوهم شيئاً عنها.

رد بصوت هادىء منخفض وجاد:

ـ وأنا قلت لك، الجمال يأتي من النفس.

أسرتها ملاحظته بالطبع، لأنها تعرف أنه صادق. عدا عن هذا، كان يحاول بسحر أن يجعل ذكرى ميلادها سعيدة.

ـ وماذا عن دروس البيانو؟

ـ فشلت في النهاية.. مع أنها استمرت أطول من صفوف الباليه والرقص الإيقاعي.

ـ وهل أخذت دروساً في الغناء؟

نظرت إليه بدهشة:

ـ أجل.. لكن كيف عرفت؟

ـ لقد سمعتك.

ـ آسفة؟

ـ سمعتك تغنين في الحمام.. وكان الغناء لطيفاً جداً.

ـ أوه.. لا! لا يمكن أن تكون سمعتني! الجدران هنا سميكة جداً..

ضج بالضحك:

ـ هدئي من روعك ماشيري بريندا.. أستطيع أن أسمع العشب وهو ينمو! يجب أن تكوني عرفت هذا الآن.. تعالي.

ـ إلى أين؟

ـ إلى البيانو طبعاً.. ستغنين مقابل عشائك.

ـ لن أفعل!

ـ إذن.. ستغنين لي.

ـ لن أفعل بكل تأكيد!

لكنها وقفت مكملة:

- على أي حال سأنضم إليك في أغنية ثنائية.

جلسا ملتصقين على مقعد البيانو الصغير ونظر جان إليها مترقباً:

- حسناً. ماذا ستغنين؟

قالت أول شيء خطر ببالها:

- «أنت ضوء القمر» أتعرفها؟

ضحك:

- أعرفها. لكنها تناسب ما بعد العشاء. أما الآن فنريد شيئاً صاخباً!

فكر لحظة:

- حسن جداً. أعطني نغمة «بوغي» من الدرجة الثامنة للسلم الموسيقي.

شهقت:

- لا نستطيع لعب «بوغي ووغي» على أساس النغمة الثامنة!

- ولمَ لا؟ الآلة هنا لمتعتنا. أعزفي يا امرأة. أعزفي!

وعزفت خمس دقائق وكانت منطلقة بأعلى صوتها بالأغنية المناسبة. إلى أن خطر ببالها صورة غريفز في المطبخ والنظرة التي على وجهه. فانهارت ضاحكة بهستيريا. حين تمكنت من إخبار جان عما تفكر به، رعد ضاحكاً بدوره.

تفوّق غريفز على نفسه. فكان العشاء ممتازاً، وفي منتصف العشاء كانت بريندا تقارب النشوة في سعادتها، ولم يكن هذا بسبب العشاء الفاخر وحده.

حين أعطاها جان علبة صغيرة ملفوفة بشكل جميل، نظرت إليه باتزان:

- لي أنا؟ أوه. جان. ما كان يجب. !

- بالطبع يجب. إنها مجرد إشارة صغيرة على افتتاني. افتحيها!

كانت قلادة فضية على شكل فراشة معلقة في سلسلة ناعمة. كانت رائعة جداً. فتأثرت بريندا كثيراً بها.

- إنها جميلة! أنا. أشكرك جان.

- ماذا ترتدين الليلة؟ فستان؟

- أجل، إنه كحلي بلون منتصف الليل، بياقة مفتوحة والقلادة ستزينه بجمال.

وضعت القلادة حول عنقها وأخذت يده تضعها على القلادة: أرأيت؟

هز رأسه ببطء. وتحركت أصابعه اللطيفة بخفة على السلسلة والفراشة حول عنقها.

وكان لدى غريفز مساهمة في عيد ميلادها وسعادتها. حين جاء بالحلوى، قدم لها علبة كبيرة من الشوكولا المصنوع يدوياً:

- سنوات سعيدة عديدة آنسة! ولا تقولي لي إنك لن تجرؤي على أكلها!

قفزت دموع سخيفة إلى عينيها وهي تشكره بحرارة. ما ألطف هذا منهما. معاً! لا بد أن غريفز هو الذي اختار القلادة بالنيابة عن المركز. ونظرت من أحدهما إلى الآخر، وتمنت من كل قلبها لو أنها تنتمي لهذا المنزل.

لم يلعبا البيانو بعد العشاء. فقد تغير المزاج، وعادا إلى غرفة الجلوس قانعان تماماً بالجلوس قرب النار والتحدث وهما يتناولان القهوة.

- هل كان هناك شيء خاطىء هذا الصباح؟ أعني، تلك المخابرة من الناشر، هل كان يسأل متى سينتهي الكتاب؟

- لا. لا. روس العجوز كان مهتاجاً في الواقع. لقد اتصلت به شركة سينما أميركية. يريدون إنتاج آخر كتاب لي كفيلم.

- حقاً؟ يا إلهي! هذا مثير جداً! أليس كذلك؟

- بالفعل؟

نظرت إليه بدهشة: طبعاً أمر مثير! وسيكون هذا رائعاً لمحبيك.

بدا وكأنه لا يعرف عمَّ تتكلم: محبين؟

ـ قراءك.. يا سخيف! أنا متأكدة أنهم سيسارعون لمشاهدة النسخة السينمائية لقصصك.

أشعل جان سيكارة يفكر بالأمر:

ـ أجل.. أعتقد أن هذه أحد الطرق للنظر إلى المسألة.

ـ وأنا أعتقد هذا. ثم أنت مدين لهم بهذا، أعني أن لا ترفض.

ـ لم أرفض. الأمر كله عائد لروس.. سيجني كثيراً من المال.

ابتسمت لنفسها.. جان في موقف لا يفكر فيه بالمال الذي سيجنيه هو.. وأكمل يؤكد لها:

ـ لن أمانع. لكن قيل لي إن الأمر سيحتاج إلى بعض الوقت في.. استشارات بسيطة مع المؤلف.. بإمكانهم المجيء إلى هنا.

أنهى التفكير مع نفسه بصوت مرتفع، ونظرت بريندا إليه بارتياب.. هل يفكر بأن يربك كل روتين حياته؟

إذن المسألة هي كما فكرت بها تماماً..! جان لا يهتم أبداً لسكوت ستيڤن.. كتاباته كانت مجرد تنفيس، وسيلة لإعطاء مخرج للطبقة الأعمق من نفسه.. الغضب.. واستعادت ذكرى ما كشفه لها غريڤز، لا طريقة فقدانه لبصره في جهد لإنقاذ رجل ميت.. يا إله السموات.. لا عجب أن يكون بحاجة إلى متنفس!

وضعت بسمة في صوتها:

ـ أتعرف.. سألتك يوماً منذ متى وأنت تكتب ولقد أعطيتني.. رداً.. غير لطيف! وكان ذلك سؤالاً بريئاً.. كنت فقط أتساءل كم مضى وأنت تكتب باسم سكوت ستيڤن.

تحولت عيناه إلى لون بني متوهج، مليء بالمرح.

ـ أذكر هذا.. والرد على سؤالك الحالي هو نعم، كنت أكتب قبل أن أصاب بالعمى.. ولمجرد التسلية. وكنت أكتب الشعر.. هل اكتفيت

الآن؟

لم تقلق بريندا.. مع كل يوم يمر، كانت تعرف المزيد والمزيد عن جان.. لكنها لن تتركه يعرف كم عرفت. ليس بعد.. في يوم ما ستستخدم كل ما تعرفه لتهز هذا الرجل حتى أعماقه.. ستعيده إلى الحياة، حتى ولو اضطرت إلى جرحه بشدة.. لكن عليها أن تأخذ وقتها.. في هذه اللحظات ليس لديها ما يكفي من قوة لتؤثر عليه.

مدت يدها إلى يده.. كانت حركة متعمدة محسوبة.

ـ عزيزي جان.. يجب أن أتمنى لك الآن ليلة سعيدة.. وشكراً على الأمسية الرائعة.

أعطاها تلك الابتسامة المميزة التي كانت دائماً تجعلها تحس كأن الشمس أشرقت.. وهما يقفان استبقى يدها في يده:

ـ تصبحين على خير بريندا.. وشكراً لك، لقد تمتعت بالأمسية أيضاً.

ـ حقاً؟ أتعرف.. أنت لغز محيّر.. أجدك مضيفاً رائعاً.. لكنك جعلتني أنتظر طويلاً لأنال حظوة قضاء المساء معك.. وأنت لم تدعني هذا المساء إلا لأنه عيد ميلادي.

ـ لا.. هذا غير صحيح.. عيد ميلادك عذر جيد، هذا كل شيء. مجرد عذر للتطفل على خلوتك.

ـ لست أنا من يحتاج إلى خلوة جان.. لو كنت أنت راغباً فأنا على استعداد لتناول العشاء معك كل ليلة.

رفع يدها إلى شفتيه: عزيزتي أوه بريندا.. أنت لطيفة جداً.

ـ لا دخل للطف في هذا.. لقد كنت فعلاً أنانياً.. وتعرف هذا. اعتذرت لتصرفك المعادي للاجتماعيات ثم انسحبت تماماً! أنا لدي احتياجات أيضاً.. وظننتك تلاحظ هذا. إذا أردتني أن أكون سعيدة حقاً هنا، يجب أن تعطيني المزيد من صحبتك.

انضم حاجباه معاً في عبوس شديد:

ـ أهذا ما تريدينه حقاً؟

ـ أجل.. هذا ما أريد.. هذا ما أحتاج إليه.

ابتسم وبدا سعيداً، لكنه لا زال مرتاباً قليلاً.

ـ حتى مساء الغد إذن.

ـ حتى مساء الغد جان.

ترك يدها وتركته بريندا في غرفة الجلوس.. صعدت السلم إلى غرفتها كل درجتين بخطوة واحدة، وهي تعرف أنها حطمت الحاجز.. كانت مهتاجة ومع أنفاسها المتثاقلة كانت تغني: لوني اليوم وردي.. لوني الآن وردي.. وردي.. وردي!

***

٩ ـ ممنوع اللمس

منذ ذلك اليوم، لم يفترقا.. كانا يعملان معاً كرئيس وسكرتيرته، ويتغديان ويتعشيان كصديقين. كانا يلعبان البيانو دائماً مع أن بريندا كانت تفضل الجلوس والاستماع بدلاً من المشاركة.. جان كان طيباً، حقاً طيباً. لكن يجب أن يكون هكذا، فهو رجل موهوب جداً، أي شيء يضع ذهنه فيه سيكون سيده.. وسيبرز فيه!

تحدثا وقت الغداء عن الفن، عن الفنانين الفرنسيين الذين يفضلانهما معاً.. ما عدا واحداً.. تحدثا في الموسيقى، في السياسة، والتاريخ، وكان جان معيناً لا ينضب من المعلومات، وازدادت معرفة بريندا وتحسنت أذواقها في أشياء كثيرة.

سارا معاً حول أرض المنزل الواسعة تحت المطر أو الشمس وحين تراجع أيار أمام حزيران أصبحت الورود مكتملة.. لكن بريندا لم ترسم حديقة الورود له بالكلمات كما خططت، بل قام جان لها بذلك.. وما كانت مندهشة.. فليس من المبالغة القول إن جان يعرف كل إنش من الحدائق كما يعرف المنزل من الداخل.. أتم الجنائنيون تشذيبها الآن وقاموا بعمل رائع في المحافظة على المرجة وكأنها بساط اخضر. ومع تحرك حزيران ليفسح المجال لتموز، كان كل شيء في الحدائق رائعاً.. وقطعت بريندا الورود لتضعها في كل غرفة من الطابق الأسفل، مما اضطر غريفز للخروج وشراء آنية زهور جديدة.. لكنه كان سعيداً لهذا فقد أصبح

من الواضح الآن أنه معجب جداً ببريندا.. وأعجب جان بالورود في المنزل. وكان يسأل دائماً أين توجد بالضبط وفي أي نوع من الآنية هي.

لم تعد بريندا تزور أخاها كما كانت تفعل بانتظام. في الواقع كان دان متفقاً جيداً مع مدبرة منزله ولم يعد بحاجة إليها.. وأصبحت زياراتها إلى سوراي زيارات واجب لترى الولدين. وكان جان يسألها دائماً عنهما، ويهتم بما يفعلانه. أكثر من مرة، دعته بريندا للانضمام إليها حين كانت تخرج معهما لكنه لم يقبل أبداً.

لكن الكتاب لم يكن يسير كما يجب.. في بعض الأيام كان جان يتخلى عن العمل تماماً، ويتناولان الفطور في الخارج فوق المرجة قرب بركة السباحة، يتنعمان بشمس الصباح وبريندا تقرأ له الصحف. كانت بريندا راضية عن تقدم الكتاب بهذا البطء.. فبالنسبة لها يمكن لجان أن يأخذ خمس سنوات لإكماله.

كانت سعيدة بشكل محموم، ما عدا معرفتها أن هذا الوقت الجميل سينتهي يوماً.. لكن مع انطواء الأيام أصبحت أكثر أملاً.. جان كان يتمتع وكانت واثقة من هذا.. ولو ظلت كتابته تسير ببطء، فلربما أبقاها معه دوماً.. ولم تكن تأمل بشيء أكثر من هذا، فمن الواضح المؤلم أن جان لم يكن يهتم بها جسدياً أو رومانسياً. في الواقع، وصلت علاقتهما إلى مرحلة لم يعودا يتلامسان. وأي محاولة من الإمساك بيده أو ذراعه كان يقابلها بالصد، لكن بطريقة لطيفة.. ولم يكن يقال شيء ما، كان فقط يتجنب لمستها وتطبق الستائر فوق وجهه..

بالنسبة لبريندا، كان هذا مؤلماً، لكنها تقبلت هذا ولم تحاول تغيير الأمور بأية طريقة، فهي لا تريد أن تخاطر بأي نوع من الانسحاب في هذه المرحلة.

أحبته إلى درجة الدمار، إلى درجة لم تعد قادرة على السماح لنفسها بالتفكير باليوم الذي يجب أن تغادر فيه المنزل.. لكن كل الآمال التي احتضنتها في أن يوظفها جان بشكل دائم، تشتتت حين زاره الناشر

روس.. وأمضى الرجلان طوال بعد الظهر في المكتبة، ولم يدعوا بريندا للجلوس معهما ولا حتى لتسجيل الملاحظات.. وكان واضحاً، بهذا، أن أية خطط كان يضعها جان للمستقبل لا تشملها كسكرتيرة.

لكن معرفتها هذه لم تخفف من اشتياقها لقضاء بقية حياتها مع الرجل الذي أحبته. لقد حصلت على الكثير من هذه العلاقة أكثر مما حصل عليه جان.. ولم تكن بريندا تنوي أن يحدث كل هذا.. لكنه حدث، كان جان محدثاً لبقاً ورائعاً وكثير المعرفة.. عكس ما كانت تأمل أن تحققه، كان هو في الواقع من فتح عالماً جديداً أمامها.

أما جان.. حسناً.. من الصعب القول كم حققت من تقدم بالنسبة لمشروعها الخاص. بكل تأكيد، بدا جان أكثر سعادة هذه الأيام.. لكن بالرغم من أنهما كانا يقضيان وقتاً طويلاً معاً، إلا أنه لم يسمح لها بمعرفة ماذا يجول حقاً في رأسه: كيف يحس حقاً حول الحياة. حديثهما لم يكن ليذهب أعمق من المواضيع العامة.. كان وكأنما هناك جزء من نفسه يرفض مشاركته مع أحد. كان لا زال غامضاً جداً.

كان اليوم هو ثاني يوم سبت في شهر تموز. وخرجت بريندا لتتسوق وتشتري الزي الذي ستحضر به عرس كاتلين. التقت الفتاتان باكراً بعد الظهر، ومعاً انتقلتا من متجر إلى آخر في جهد لإيجاد شيء مميز فعلاً لليوم الكبير.

قالت كاتلين محتجة:

ـ كان يجب أن نفعل هذا في وقت مبكر.. بدلاً من تركه إلى ما قبل الزفاف!

لم تعلق بريندا.. كان يجب أن تشتري ثوبها منذ أسابيع مضت.. لكن كاتلين كانت راغبة في مساعدتها على الاختيار، وهي كانت في «ليدز» في نهايات الأسبوع التي سبقت. وقامت بريندا بجهد لإسعاد صديقتها.

ـ لا بأس.. نحن في منتصف الطريق ولم يبق لدينا أكثر من مئة متجر

لنفتش فيها قبل أن يصيبنا الإرهاق!

كانت الساعة قد وصلت الخامسة قبل أن تجدا الشيء المناسب تماماً، أخيراً وبعد دفع ثمن الثوب، نظرت الفتاتان إلى بعضهما في مزيج من الإرهاق والتعب والرضى.. وضحكت كاتلين:

ـ عظيم.. هل نطعم أنفسنا الآن؟

ـ أكاد يغمى عليّ من الجوع!

بعد عشرين دقيقة، كانتا جالستين في زاوية مطعم إيطالي صغير، وطلبتا كوبين من المرطبات، كانتا في أمس الحاجة إليهما.

وقالت كاتلين:

ـ أتساءل إذا كان الأمر يستحق كل هذا! أعني كنت سأرضى تماماً بمراسم صغيرة في مكتب لتسجيل الزواج. لكن أهل جون أصروا على زفاف كنسي كبير، أتصدقين هذا؟ إنهم راغبون «في الأفضل» لابنهم الوحيد.

ضحكت بريندا، غير مقتنعة باحتجاجات صديقتها.

ـ وأنت أردت هذا كذلك، هيا الآن، اعترفي! أنا سعيدة جداً لك كاتلين، وأتمنى لك كل الحظ.

رفع شيء ما في صوت بريندا، رأس كاتلين إليها بحدة. وضعت لائحة الطعام جانباً وقطبت قليلاً.. أحست بالذنب، لقد تركت طوال بعد الظهر يمر دون أن تسأل بريندا عن حالها. ولم يعد من الصعب الآن رؤية أن هناك شيئاً خاطئاً:

ـ بريندا.. بم كنت تفكرين.. إنه جان.. أليس كذلك؟ ماذا.. كيف حالك معه؟

ـ جيدة جداً..

وأخبرت صديقتها عن الطريقة الرائعة التي نمت فيها علاقتها بجان.. وكيف أنه دعاها للعشاء معه يوم عيد ميلادها وكيف أنهما منذ ذلك الوقت لا يفترقان. لكن وهي تتكلم، تمكنت حتى هي من سماع المرح المزيف

في صوتها.. وعرفت أنها لا تخدع كاتلين.. فتلاشى صوتها، وأخذت تفتش في حقيبتها عن سيكارة، وقد صدمها تهديد الدموع. حين وجدت صوتها ثانية، أكملت ترفع يدها احتجاجاً.

ـ أعرف ماذا ستقولين، كان يجب أن أترك منزله منذ أسابيع. وما كان يجب أن.. أنا من خارج وسطه، أعرف هذا.. في الأساس نحن من عالمين متباعدين، وهذه هي المشكلة.. وأنا..

جعلتها النظرة على وجه كاتلين تتوقف.. كاتلين فتاة ذكية، وتعرف بريندا منذ وقت، هكذا لم يكن من الصعب عليها أن تعرف الحقيقة.

أجبرت بريندا نفسها على مواجهة الحقيقة:

ـ لكن.. هذا لن يكون له فارق أبداً.. لو أنه مهتم بي.. أعرف هذا.. لكن.. أنا.. الأمر فقط..

ـ أوه بريندا! أكره أن أراك تتألمين هكذا.. أليس هناك أية مشاعر من ناحية جان؟

تأرجح السؤال معلقاً في الهواء.. وهزت بريندا رأسها:

ـ إنه يتجنبني جسدياً وكأنني الطاعون.. نحن صديقان، وهذا كل ما في الأمر بالنسبة له.

وصبت بريندا ما في قلبها لأذنين عطوفتين دون أي حرج ودون إخفاء شيء.. ودون الأمل بشيء.. كاتلين صديقة طيبة وأكثر صدقاً من أن تعرض عليها أملاً، في وقت يعرف كلاهما أن ليس هناك من أمل.

قالت كاتلين:

ـ كان يجب أن أرى هذا قادماً.. أول مرة أخبرتني فيها عنه، كان يجب أن أرى كل هذا آتياً.. عرفت أنك معجبة به، لكن.. أوه بريندا، يجب أن أقولها: الأمر ميؤوس منه! اقطعي كل ارتباطاتك واخرجي من هناك!

ـ لكن.. لكن.. ألا تظنين أنه مع الوقت قد...

ولم تستطع إنهاء السؤال.. إنها تعرف الرد مسبقاً..

- كاتلين.. لقد قلت لك وجهات نظري حول الطريقة التي قطع فيها نفسه عن الحياة.. الطريقة التي يشتاق فيها إلى الرسم.. إنني أحاول أن أظهر له أن هناك أشياء أخرى يستطيع أن يعيش لأجلها.. السعادة في مجرد العيش يوماً بيوم.. وأعرف أنني تقدمت كثيراً.. هكذا، ألا تظنين..

بالرغم عن نفسها، عاد السؤال مرة أخرى، فجاء صوت كاتلين لطيفاً صارماً.

- لا.. لا أظن أنه سيقع في حبك مع الوقت.. ولو كنت في ذات وضعك، كنت سآمل بهذا.. لكن ألا ترين الآن أن فكرتي الأولى كانت محقة؟ إنه لا زال يحب زوجته ألا ترين هذا الآن؟ إنه لم يقطع نفسه عن الحياة فقط بل عن «المشاعر» كذلك، وهنا الحاجز الحقيقي.. بريندا.. إذا كان أحد قد تمكن من اختراق هذا الرجل، فهو أنت. وأنا واثقة أنه معجب بك كثيراً.. لكن..

لم تنه جملتها، لا تحتاج لأن تنهيها فقد أنهتها بريندا بنفسها.. لكن طوال هذا الوقت، لم يعط دليلاً على.. ولا حتى قبلة «تصبحين على خير».. وأكملت كاتلين:

- أظنك كنت تخدعين نفسك بأنه حزين على رسمه.. لقد خسر زوجته لرجل آخر، وهذا ما لن يستطيع التغلب عليه.

هزت كتفيها تنظر إلى بريندا بحزن وعجز:

- أنا آسفة، لكنني أعتقد أن من الحكمة أن تغادري سيلينا هاوس بأسرع وقت ممكن.

قالت بريندا بهدوء:

- لا بأس في هذا.

لم تكن واثقة من صحة نظرية كاتلين، لكن النصيحة جيدة.. ولا يهم من منهما على حق، فالواقع يبقى أن جان لن يحبها أبداً مهما طال بقاؤها معه.

سارت مع كاتلين حتى سلم «المترو» تحت الأرض تشعر بالامتنان لصديقتها لصراحتها وصدقها الخالي من الرحمة.

قالت وهي تودعها لتأخذ كل منهما قطارها:

- سأشتاق إليك حين تنتقلين شمالاً.

- هاي! لا تبعد ليدز مليون ميل! ستأتين لقضاء نهاية أسبوع معنا من وقت لآخر.. ألن تفعلي؟

- طبعاً سأفعل.. إلى اللقاء.. أراك في الأسبوع المقبل.. في الكنيسة.

لم تضحك كاتلين.. ففي تلك اللحظة كانت تبدو تعيسة.

- أنا آسفة لأن الأمور انقلبت هكذا بالنسبة لك بريندا، يبدو أن كل شيء غير منصف في وقت أنا..

وصمتت مدركة كم أن الكلمات غير لبقة:

- أوه بريندا.. لطالما كنت صعبة الإرضاء بالنسبة للرجال! ولقد وقفت الآن أمام رجل.. هو..

أنهت لها بريندا كلامها:

- غير مكترث.. أجل ولا يمكن الوصول إليه.. أنت محقة.. أنت محقة.

لامست ابتسامة حزينة شفتي كاتلين:

- هل ستغادرين، وتفتشين عن عمل آخر قريباً؟ لا.. لن تفعلي.. هذا ما ظننته!

هزت كتفيها.. وقالت بريندا بصوت منخفض:

- أنا أؤذي نفسي.. أعرف هذا.. لكن ما بيدي حيلة.. أنا.. سأضطر إلى تركه في القريب العاجل على أي حال.. لكنني لن أرحل قبل دقيقة من اضطراري للرحيل!

* * *

١٠ ـ لأجلها فقط

كون جان لا يزال يحب زوجته السابقة، فكرة لم تعطها بريندا مصداقية في البداية، أما الآن فقد جعلها الحديث في المطعم مع كاتلين تعود مجدداً. . أيمكن أن تكون هذه هي الحالة؟

هناك طريقة واحدة لمعرفة الحقيقة، لكن بريندا انكمشت لمجرد التفكير فيها. . بإمكانها سؤاله عن ماضيه، جعله يتحدث عن حياته يوم كان مارك. لا داعي لأن تتكلم عن زوجته لكن بمجرد جعله يتكلم عن حياته كرسام، ستتمكن من أن تعرف ما هي مشاعره الآن حول رسمه. . بعدها ستعرف بالتأكيد ما إذا كانت نظرياتها صحيحة. . ما إذا كان حقاً فقدانه لقدرته على الرسم، هو ما يمنعه من أن يكون حياً.

لكن فكرة طرق الموضوع أخافتها. . لم تتحدث معه يوماً عن مارك. . كان مفهوماً منذ البداية أنه لا يريد هذا. عدا عن هذا، كانت تخشى أن ينقلب غضبه العميق عليها لو لامست مثل هذا الموضوع المتأزم. هناك اعتبارات أخرى. . فلو اكتشفت أنها كانت تعمل على أساس خاطىء طوال هذه الأشهر، فستضطر إلى مواجهة واقع أن لا جدوى من البقاء هناك أبداً.

لم تكن ترغب أن يتضح لها أن لا شيء تستطيع فعله لأجل جان. . وطالما لديها ذلك العذر للبقاء، فلحياتها معنى.

مرت الأيام دون رحمة. . زفاف كاتلين جاء ومضى. تابعت الحياة في

منزل جان سيرها كما كانت طوال فترة الصيف الجميل. . تشارك جان وبريندا أياماً رائعة وأمسيات طويلة متكاسلة، كصديقين، كرفيقين. . طوال الوقت كانت بريندا تتعلق بيأس بالعذر الواهي، إنها باقية لأجل جان. . واستطاعت تجاوز معرفتها بأنها تحضر لتحطيم قلبها القادم لا محالة، يوماً بعد يوم. . لأن حبها، يوماً بعد يوم، كان يزداد عمقاً.

حين انسحب تموز أمام آب، اضطرت للتحرك متمسكة بشجاعتها. . ويا للأسف! لو أن كتاب سكوت ستيفن جرت كتابته بالسرعة الطبيعية لكانت ستغادر سيلينا هاوس في أيلول. . فحجز خدماتها كان لستة أشهر، أكثر أو أقل بأسبوعين. . لكن الكتاب لا يكاد يصل إلى نصفه. ولم يذكر جان لها أي شيء عن استمرارية توظيفها. . وهذا موضوع آخر كانت تخاف الخوض فيه.

لا يمكن الاستمرار هكذا إلى الأبد. تعرف هذا. الحياة ليست فراغاً وصيفاً جميلاً، ولا يستمر هذا إلى الأبد. . وتلفظت بريندا بهذه الكلمات بصوت مرتفع في أمسية وهي ترتدي ملابسها للعشاء بعد أن نظرت إلى نفسها مطولاً في المرآة.

كانت قد أمضت طوال بعد الظهر في السرير مصابة بصداع، وكان جان يعرف سبب مرضها. . لكنه هذه المرة لم يحاول تدليك التوتر. وهذا أفضل، فهي الآن لن تتمكن من تحمل لمسة يديه دون ردة فعل، دون الانهيار، ودون أن تقول له كم تحبه. . وهذا آخر ما ترغب أن تفعله.

وقفت تملس تنورتها بيدين مرتجفتين، كان التوتر داخلها يتصاعد يومياً وكأنه قوة بركان. . في أي وقت الآن، شيء ما يجب أن ينهار. . فهي لن تستطيع الاستمرار هكذا.

الليلة. . الليلة ستكلم جان عن مارك. . لأجلها، ولأجل جان معاً. . يجب أن تعرض هذا الموضوع بشكل حاسم. لقد آن الوقت لمحاولة جعله يتكلم عن ماضيه. . وستعرف ساعتها أين هو موقفها.

انتظرت إلى ما بعد العشاء، إلى أن جلسا في غرفة الجلوس. . كانا

يجلسان بهدوء، يدخنان ويشربان القهوة. . . بريندا مكورة على الأريكة، تتمتع برؤية جان في مقعده المريح، الذي عرفت أنه يفضله قبل أن تلتقي به. كانت تفكر بالمرة الأولى التي رأت فيها غرفة الجلوس. هذه الفكرة أعطتها وسيلة رائعة كبداية لحديث.

- أتعلم أنني أحب هذه الغرفة حقاً؟.

ابتسم جان:

- أجل. . فلها جو نابض بالحياة. . أليس كذلك؟ لقد كان هذا المنزل مكاناً سعيداً جداً في الماضي.

- أتعلم. . أحب غرفة الطعام كذلك بكسوة جدرانها البيضاء والزرقاء. . ديكور المنزل كله رائع. . من صممه؟

- صممته مؤسسة ديكور في لندن، لكنني اخترت الألوان بنفسي بمساعدة غريفز طبعاً!

حين لم يتلق رداً على ما قال، ابتسم:

- ألست مندهشة؟ أم أنك أدركت حتى الآن أن لا شيء خاطىء في مخيلتي أو ذاكرتي للألوان؟

- حدث هذا منذ زمن. . ماذا عن الأثاث؟ أكان لأمك أم أنك جئت به من. . من باريس؟

- بعضه لي. . لقد جئت معي بقطعي المفضلة. . مثل طاولة خشب الأطلس، المرآة الأثرية هناك، واللوحة فوق المدفئة.

كانت بريندا تراقبه بحذر ومعدتها تتقلص.

- ولوحاتك؟

رفع رأسه نحوها بسرعة، بدهشة، وكأنما خاب أمله فيها. . ثم تصلب وجهه وأصبحت نظرته محترسة.

قال ببطء:

- حسن جداً بريندا. . ما الذي تريدين قوله عن مارك؟

- لا شيء بالتحديد. أنت من يقلقني.

بدا مسروراً لاعترافها. . لكن صوته كان متوتراً وهو يتكلم: وبعد؟

أخذت نفساً عميقاً، خائفة أن يفقد أعصابه. . لكن هذه مجازفة عليها الخوض فيها.

- حسناً. . لقد استبقيت أربع لوحات لمارك. . ويبدو. . يبدو هذا لي غير مناسب. يجب أن تكون في معرض عام. . يجب أن تعطى للعالم. . وخاصة أن عددها لن يزيد أبداً.

لقد بدأت. . وحضرت نفسها للمواجهة. . مرت لحظة طويلة قبل أن يتكلم جان. . حين تكلم، استخدم ذلك الصوت الناعم المخملي الذي يحجب مشاعره:

- أليس لي حقوق؟ ألا يحق لي الاحتفاظ بأربعة منها؟

فكرت بالأمر جيداً:

- ربما لك الحق، لكن. . لكنك تستبقيها بأعذار خاطئة.

صمتت لحظة، أصابعها مكورة بشدة، حتى أن أظافرها كادت تقطع راحة يديها:

- أعتقد أنك تحتفظ بهذه اللوحات لأنك لا تستطيع ترك الماضي وشأنه.

وحصلت على ردة فعل. . رحبت بريندا بها وخافت منها في آن واحد. . فقد وقف عن مقعده وأخذ يسير في الغرفة بخفة الفهد:

- أيتها الحمقاء! لقد أمضيت خمس سنوات أفعل هذا بالضبط! لقد تركت الماضي وشأنه! والآن أتسمحين بأن تسحبي كلامك؟ آرس لونغا. . ڤيتا بريڤاز!

- أنا. . لا أعرف ماذا تعني.

- أعني أن الفن طويل، والحياة قصيرة، هل فهمت الآن؟

- لا.

فجأة، ودون توقع. . هدأ.

- حسن جداً بريندا. . دعيني أشرح لك. . الفن يعيش طويلاً. فإذا

كان جيداً حقاً، يعيش باستمرار في وقت يموت فيه أجيال من الناس.. وأنا فخور ومبتهج لأنني تمكنت من إنتاج مثل هذا العمل! وأشكر الله على الموهبة التي أعطانيها للعديد من السنوات، لكنها ذهبت الآن وتقبلت هذا، كل ما أتمناه أن يتقبله الآخرين.. سأبقى أعمى لما تبقى من حياتي.. وهذا شيء أعرفه.. اللوحات الأربع في هذا المنزل هي لسعادتي.. صدقيني، أستطيع أن أراها أكثر مما ترينها أنت، وماذا يستطيع المرء أن يطلب أكثر من اللذة التي يعطيها الفن؟ حين أموت هذه القطع الأربعة ستمر إلى أيد أخرى تقدرها.. ولا يهمني ما إذا كانت ستعرض للناس أو لشخص واحد.. طالما تعطي السعادة، فكل شيء على ما يرام. أنا لا أفكر على أساس امتلاكها.. بل أفكر على أساس أنها عندي كقرض.. مؤقتاً هي هنا لإعطائي السعادة.. وهذا لا علاقة له بترك الماضي وشأنه.

كانت خطبة رائعة.. ونظرت بريندا إليه غير مصدقة، إنه يقول الحقيقة وهي متأكدة من هذا، يعني كل كلمة قالها:

ـ إذن.. أنت فعلاً تكيفت مع واقع أنك لن ترسم مجدداً؟

ـ أجل.. لقد تكيفت.

كل هذه الشهور وهي تحمل أفكاراً خاطئة.. خاطئة!

ـ تقول إنك ممتن لما أنعم الله عليك من موهبة والقدرة على إنتاج الجمال الذي سيستمر في الوجود عبر الأجيال.. وقلبك.. ألا يحن أبداً للعودة؟

ـ عودة القدرة على الرسم؟ لا لم يعد قلبي يشعر بشيء.

استدار عنها، فأطرقت رأسها ببطء وعيناها تحرقهما الدموع.. هذا كل شيء.. لقد أصبحت أيامها معه معدودة. لم يعد هناك ما تستطيع القيام به لمساعدته، ما عدا.. ربما..

قالت بصوت لا يكاد يصل الهمس:

ـ فهمت.. لكن قل لي لماذا تبقى سجيناً هنا؟ لماذا لم تخرج معي

ولو لمرة؟

استدار بسرعة:

ـ سجين؟ عمّ تتحدثين؟ هناك فرق كبير بين السجين والناسك! أنا أبقى هنا لأنني اخترت البقاء، وليس لأنني مضطر! أحب الهدوء والخلوة.. هذا كل شيء.

قالت تتحداه:

ـ حسن جداً.. أثبت هذا لي.. أخرج معي هذا الأسبوع.

كتمت أنفاسها.. إنها تريد هذا بشدة له كما لها، تريد ولو لمرة واحدة أن تخرجه من المنزل.. أن تقضي أمسية جميلة معه، تستطيع أن تحتفظ بها في ذاكرتها بعد أن تتركه.

قال:

ـ لست مضطراً لأن أثبت شيئاً لأي كان بريندا.. لقد خيبت أملي.. لماذا أخرج بحق السماء؟

قالت ببساطة تدعو الله أن يكون مهتماً على الأقل بما يكفي لأن يفعل هذا الأمر الصغير لأجلها:

ـ لأنني أطلب منك هذا.. فسيعطيني هذا الكثير من السعادة.. جان.

عادت إلى فراشها.. لكن لتقضي ليلة بلا نوم في صمت كان يصرخ في وجهها بحدة، وفي غرفة بدت فجأة خانقة الحرارة لا تتمكن من التنفس فيها.. إذن جان ليس حزيناً لفقدانه قدراته. الآن لم يعد هناك أمامها سوى خيار مواجهة ما يتعذر عليها الهرب منه. لقد كانت مخطئة.. وكاتلين محقة!

في الأسبوع التالي ستغادره.. سيكون الآن أفضل منه لاحقاً.. ستعطيه إنذاراً، ستقول له بعد أن يقضيا الأمسية في الخارج معاً.. ستحصل على هذا أولاً.. صحيح أنها رغبة سخيفة وتعرف هذا، إلا أنها تريد أن تقضي أمسية معه في الخارج.. مجرد أمسية واحدة يقضيانها وكأنهما شخصان عاديان يتمتعان بموعدهما.

ليس كثيراً أن تطلب هذا!

مضى يومان على هذا، كانا يجلسان في المكتبة وقد عاد وايلي إلى نشاطه مرة أخرى. . لكن العمل لم يكن يجري جيداً، واختارت بريندا لحظة سيئة لتقول لجان عن خطتها.

ـ هل اشتريت لنا بطاقتين للأوبرا؟ بريندا. . هذه فكرة سخيفة. . انسيها!

ـ هل ستتراجع عن وعدك؟

ـ أنا لم أعدك شيئاً. . أنت تفترضين الكثير!

لم تستطع أن تغضب منه، إنه محق فهو فعلاً لم يعدها بشيء.

ـ ولماذا هي فكرة سخيفة؟ لو أنني دعوتك إلى الباليه لفهمت وجهة نظرك. . لكن هذه موسيقى جان. . ولا تحتاج إلى عينين لتتمتع بالموسيقى الجيدة. . وأنت تتمتع بالموسيقى، ولا تستطيع أن تقول لي العكس.

كان صعباً عليها الظهور بمظهر طبيعي ومحاولة الجدال معه بمنطق. . لكنها أكملت:

ـ ظننت أنها ستكون أمسية جميلة لنا. . وستكون بكل تأكيد تغييراً بالنسبة لي.

ها قد طارت مرة أخرى كبرياؤها عبر النافذة. لكنها لم تدع هذا يوقفها:

ـ أنا. . حجزت مقصورة خاصة كي لا يزعجنا أحد لو وصفت لك المنظر وأخبرتك ماذا يرتدي الجميع. . أرجوك جان. . افعل هذا لأجلي.

تنهد جان مارك داخلياً. . أفعل هذا لأجلها؟ يا إلهي. . سيفعل أي شيء في العالم لأجل هذه الفتاة. . أي شيء! لقد حاول طويلاً مقاومتها منذ البداية. . لكن مقاومتها كانت كمحاولة السباحة في الرمال المتحركة.

لقد أصبح يعرف بريندا توماسن أكثر مما تعرف نفسها. . إنها تفعل هذا متعمدة. . لكن ليس من المفترض أن يعرف هو بهذا. . آه. . يا لها من طفلة حلوة ثمينة! لقد تمشت معه، عملت معه، تحاربت معه،

تحدثت إليه وأصغت. . كانت عيناه، وسمحت له بعض الأحيان أن يكون عينيها.

فعلت كل هذا لأنها اللطف بعينه. . ولأنها بحاجة ماسة لأن يحتاجها أحد.

لقد سمح بلطفها وتقبله لأن في التقبل عطاء. . لقد أراد كثيراً أن يعطيها، أن يجعلها سعيدة. وهي سعيدة الآن. . ليبارك الله قلبها، وستترك المنزل وهي تعلم أنها حركت جان مارك ليعيش مجدداً. . وهو فهم هذا.

كان إخراجه من عزلته هدفها الرئيسي الآن، وما من شك أنه الهدف الأخير. . إنه شيء تمهد له منذ شهر. . وسيذهب. . سيعطيها الأمسية التي ستذكرها دوماً، وسيظهر أنه يقضي أجمل أمسية في حياته. . لأجلها؟ أجل. . سيفعل هذا لأجلها!

رأت بريندا وجهه ينفرج بابتسامة، وطار قلبها فرحاً. . لقد ربحت! ربحت!

ـ هل ستخرج معي؟ ستخرج؟ كنت تمازحني، أليس كذلك؟ التذكرتين ليوم الجمعة، أيناسبك هذا؟ هاي. . سأذهب لأجد غريفز. . فكر فقط أنه سيتمكن من أخذ أمسية كاملة من الراحة!

ضحك جان:

ـ أنا سأقول له. . لقد فكرت لتوي بأمر ما. . النظرة التي ستكون على وجهه حين يعرف أنني سأخرج. . لن تتمكني من تحملها. . لذلك سأقول أنا له!

وكانت أمسية للذكرى. . مرة حلوة، نظرت إليها بريندا كخطوة هائلة إلى الأمام لمصلحة جان. . وكنهاية لفصل جميل جداً من حياتها.

ارتديا أفضل ما لديهم، وقادت بريندا سيارة جان الجاغوار إلى قلب لندن. . كانت تعرف أنها لا يمكن أن تحبه أكثر من هذا، ولكنها كانت تحس بتقارب أكبر بينهما هذا المساء، ليس فقط لأن جان مضطر للإمساك بذراعها، بل كذلك لأنها أحست أنه يتمتع بوقت رائع.

جلسا خلال الأوبرا يحضران عرضاً قديماً مفضلاً لكليهما.. من وقت لآخر، كانت تهمس له، ترسم له بالكلمات المشاهد والديكور والأزياء، وضحكا معاً لسخافة الحبكة المسرحية، وبقيا صامتين والمؤدون يغنون من كل قلوبهم.

مع انتهاء العرض، أعلن جان أنه سيأخذها إلى العشاء في فندق «السافوي».

كانت قد أدارت المحرك لتوها، وأصيبت بالصدمة.

ـ السافوي؟ أوه.. لقد ظننت..

كان لديها أفكار خاصة حول عما سيفعلان فيما تبقى من السهرة.

نظر إليها جان بحيرة:

ـ تشعرين بخيبة أمل.. لماذا؟

ـ لا.. لست هكذا.. هل حجزت؟

ـ لا.. ليس الحجز ضرورياً في مثل هذه الساعة من الليل.. بريندا هل هناك خطب ما؟

ـ أبداً! الأمر فقط أنني فكرت أن نذهب في نزهة بالسيارة.. إنها ليلة دافئة جميلة.. فكرت أن نجلس على تل مرتفع قرب المنزل.. تل يشرف على الأضواء اللامعة في البلدة الجديدة.

ابتسم لمعان أبيض في الوجه الأسمر القاتم:

ـ آه..! لنعود شباباً..! يا لهذا الطيش! لكن ماذا سنفعل بخصوص الطعام؟

ثارت حماستها، سعيدة أنه يرغب في الموافقة على خططها.

ـ هناك محل بيع سمك ورقاقات بطاطس خارج مطعم السنوتو..

ولم تكمل.. فقد كان جان يضحك بشدة، فلكزته ممازحة في ضلوعه:

ـ ماذا بك بحق الله؟ ماذا قلت؟

فجأة أخذت تضحك بدورها، ليس لأنها فهمت سبب ضحكه لكن

لأن ضحكته كانت معدية، ومضت برهة طويلة قبل أن يتمكن من الكلام، بينما بريندا تنطلق بالسيارة.

ـ بريندا لا أصدق هذا.. ها أنا ذا أعرض عليك عشاء فاخراً في سافوي، وأنت تريدين الجلوس فوق تلة وأكل السمك ورقائق البطاطس.. لا أظن أنني قادر على تحمل هذا!

قالت بصوت معاتب:

ـ جان مارك! لا تقل لي إنك عشت حياة الطبقة العليا حتى أنك لم تذق الطعام الإنكليزي الشعبي؟

ـ لا تكوني سخيفة.. لقد عشت على أشياء مماثلة أيام الدراسة أو ما يماثلها في فرنسا.

ـ إذن لماذا تضحك كثيراً؟

كانت نصف آسفة لسؤالها هذا، لأنه تجهم فجأة وأحست بعينيه على وجهها.

ـ أنت لا تأبهين البتة لثرائي.. أليس كذلك؟

ردت بجدية مماثلة:

ـ لست أدري ما تعني.. أتعني ثراءك المادي؟

كانت ضحكته الآن جوفاء.

ـ وما غيره؟ أنا في الواقع مليونير يا حلوتي.. خلال أيام حياتي، صرفت قدراً كبيراً كذلك.. وها أنت تشترين تذاكر الأوبرا وتعرضين شراء العشاء لي!

كان في لهجته شيء جعلها تشعر بارتباك بسيط.. وتساءلت ما الذي يدور في دماغه.. لم تستطع فهمه أبداً.. فقد أخذ الحديث منحى غريباً بالنسبة لها، وقامت بجهد للمرح مجدداً ولإعادة الضحك.

ـ هاي.. مهلك الآن قليلاً..! أنا لم أقل شيئاً عن دفع ثمن السمك والبطاطس..

ونجحت.. على الأقل في الوقت الحاضر.. فقد عاد جان إلى

طبيعته لكنها فيما بعد لاحظت أنه أصبح هادئاً محترساً.

كانا يجلسان على التل، يتمتعان بالمنظر كل بطريقة مختلفة حين أحست بريندا بدافع لتسأله ماذا به. لكنها لم تسأل، أبقت فضولها مكبوتاً، لأنها خافت بيأس أن يحدث شيء يفسدعليهما الأمسية.

كان جان في الواقع يبعد أميالاً، سنوات عديدة في أفكاره. يا إلهي العزيز. لماذا يفكر بإليان الآن؟ لماذا الآن في وقت كل شيء يريده هو احتواء بريندا بين ذراعيه؟ جسدياً كان يحس بوجودها. . كان عطرها الوردي الرائحة، يختلط بهواء الليل النقي يغزو فتحات أنفه وأحاسيسه. . كانت تجلس قريبة جداً منه حتى يكاد يحس بكل حركة لرأسها، ويرى تقريباً عينيها تشربان بعطش من المنظر أمامهما، كم تتمتع بالأشياء البسيطة! يا لها من طفلة الطبيعة الصغيرة. . بريندا!

لقد بدأ يحبها منذ زمن بعيد. . يوماً بعد يوم، كان ذلك الحب يزداد عمقاً. لكنه لم يكن واهماً في حبه. . ويعرف أن لا شيء سينتج عنه. . لا شيء أبداً. . لقد تأخر الوقت كثيراً.

عما قريب سترحل، ولن تعرف أبداً أنها رمته مباشرة إلى جحيم أسوأ بكثير مما كانت عليه حياته من قبل. . وكيف يمكنه أن يستمر في العيش دونها؟ وذكر نفسه أنه استطاع من قبل أن يتكيف، لكن هذا لن ينفع الآن. . فالأمر مختلف. . مختلف جداً.

لقد دخل في كل هذا وعيناه مفتوحتان واعيتان. . كما يقال. ولا مجال للوم أحد ما عدا نفسه. . لكن أيمكن أن يلوم نفسه لأنه إنسان؟ . . أجل، خاصة أنه عرف ما ستكون النتيجة. . فمع حبه لبريندا الذي يتعاظم كل يوم، كانت قوته تخونه. . لقد أراد المستحيل: أراد أن يمضي كل دقيقة لما تبقى من حياته معها، أرادها بكل ما تعني الكلمة. . أرادها بشدة بحيث أنه توقف عن لمسها منذ مدة، لأنه لا يجرؤ على هذا. ببساطة لا يستطيع الوثوق بنفسه ليلمسها. . وحبه لها هو إطلاق لعنان نفسه وهذا الذي سيجعل حياته المستقبلية جحيماً لا يطاق.

تحركت بريندا إلى جانبه، تقول شيئاً لم يسمعه. . وبالرغم من نفسه، عاد ليفكر مجدداً بإليان. . التوى فمه بانزعاج وهو يبعد الفكرة عنه. إنه لا يريد التفكير بها! ليس الآن. . ليس الليلة. .

ـ تعالي بريندا. . يجب أن نذهب، لقد أصبح الجو بارداً.

جاء صوته بحدة أكثر مما كان ينوي. فنظرت بريندا إليه بدهشة. . أين كان مستغرقاً في أفكاره لتوه؟ لماذا ازداد تجهمه طوال المساء؟

ـ ماذا. . ماذا بك جان؟ ما الخطب؟

لم يرد. . وهي تصعد إلى السيارة أحست بغثيان من شدة القلق، نظرت إليه مرتبكة. بدا مجهداً، فانتظرت إلى أن دخلا المنزل لتسأله مرة أخرى ما خطبه. . فحتى تلك اللحظة لم يكن لديها خيار سوى إعادة السؤال، جان لم يتكلم أبداً خلال رحلتهما، وازداد ذعرها لفكرة أنها قد تكون ارتكبت غلطة مريعة في إقناعه بالخروج من المنزل. . أيمكن أن تكون أخطأت الليلة في سعيها لتظهر له أن الحياة لا زالت تتقدم؟ هل نجحت فقط في تذكيره كم ينقصه؟

ـ جان. . أنت لم تتمتع بهذه الأمسية. . صحيح؟

كادت تموت للتعبير المؤلم الذي مر سريعاً على وجهه.

ـ كانت أروع أمسية أمضيتها منذ زمن طويل. . وأتمنى لو أنني فعلت هذا قبل الآن، شكراً لك.

أحست بحنجرتها تضيق وقلبها يخفق ويديها ترتجفان، لماذا يكذب عليها؟ ما الذي حدث هذه الأمسية ليجعله يتغير بهذا القدر؟

دون تفكير مدت يدها تلامس وجهه. . أجفل قليلاً وأطبقت عيناه، فسارعت إلى إبعاد يدها. . عرفت لحظتها أن الأمسية كانت غلطة شنيعة، وعرفت كذلك ما الذي يجري في رأسه.

ـ الليلة. . ذكرتك بشيء ما. . أليس كذلك؟ كنت. . كنت تفكر بماضيك؟

لم ينكر جان هذا ولم يقل شيئاً. . بل هز كتفيه.

عضت بريندا شفتها السفلى بقسوة، ممتنة لأول مرة أنه لا يستطيع رؤيتها، رؤية وجهها، الألم فيه، الدموع الصامتة التي أخذت تلمع في عينيها.. لو كانت راغبة في إثبات أن كاتلين على حق، فقد حصلت عليه الآن. لقد كان جان يفكر بإليان الليلة.

ـ أنت.. كنت.. تفكر بزوجتك.. أليس كذلك؟

نظر إليها بحدة وفضول.. وشدت بريندا من عزيمتها تحارب لتسيطر على النحيب المتصاعد إلى حنجرتها.. قال بنعومة:

ـ أجل.. في الواقع كنت أفكر بها.. تعالي، لنتناول شيئاً ساخناً قبل أن ننام.. أنا بحاجة إلى شيء.

لم تتحرك.. فقد لزمها كل ذرة من قوة إرادتها لتسيطر على الهستيريا المتصاعدة داخلها، ولتجبر صوتها على الخروج بما يشبه الوقار.

ـ لا.. شكراً.. سأنسحب إذا كنت لا تمانع.. فأنا متعبة.

استدار جان وهي تصل السلم، وعيناه ضيقتان قليلاً:

ـ كما تشائين.. هل هناك شيء خاطىء بريندا؟

تمسكت بريندا بدرابزين السلم لدعم نفسها.. أحست أن ساقيها تكادان تنهاران تحتها.. يجب أن تقول.. الآن.. ومع أن قلبها وروحها كانا يصيحان أن لا.. يجب أن تقول له إنها راحلة.

ـ لا.. لكن كنت أفكر مؤخراً.. أن عملي.. الستة أشهر تكاد تنتهي.. أعرف أنني وعدت أن أبقى إلى حين انتهاء كتابك لكن.. يجب أن نبحث الأمر في وقت ما.. نظراً إلى أنك لم تصل بعد إلى منتصف القصة..

جعلها التعبير الذي احتل وجهه، تصمت.. هل هذا خيبة أمل، حيرة، أم ماذا؟ لكن حين تكلم اتضح لها بألم أنه لم يكن خائباً.

ـ أجل.. يجب أن نبحث الأمر.. اتفاقنا كان فقط لستة أشهر. ولا يمكنك البقاء هنا إلى أجل غير مسمى.. ربما نتحدث بالأمر غداً؟

ـ لا.. فأنا ذاهبة إلى حفلة عيد ميلاد ابنة أخي غداً.. ولن أعود قبل

يوم الأحد.

أصبح متصلباً معها:

ـ حسن جداً.. سنتكلم يوم الأحد.. ليلة سعيدة.

ما إن أغلق باب غرفة الجلوس وراءه، حتى ركضت بريندا ما تبقى من السلم والدموع تتدفق على وجهها.

رمت نفسها فوق السرير، ذراعاها تلتفان بشدة على معدتها، وكأنما هذا يمنع الألم في داخلها.. هذا كثير على مثل هذه الأمسية الجميلة! وستكون فعلاً.. للذكرى.. هل ستتمكن يوماً أن تنسى أن المرة الوحيدة التي خرجت فيها مع جان، أمضى فيها نصف الأمسية يفكر بزوجته التي فقدها لرجل آخر؟ الزوجة التي لا زال يحبها!

* * *

١٢ ـ خذي حبك وارحلي!

أزعجت محاولة التصرف بشكل طبيعي في حفلة ميلاد ابنة أخيها، بريندا إلى أقصى الحدود. . وتهربت من منزل أخيها صباح الأحد الباكر، وعادت بسرعة أكبر مما يجب إلى سيلينا هاوس.

لكن ما إن وصلت إلى البوابات الطويلة الحديدية حتى أوقفت السيارة. . ثم تراجعت قليلاً، لا تريد جذب اهتمام الكلبين. إنها بحاجة إلى بعض الوقت لتفكر قبل مواجهة جان.

أفلتت منها ضحكة جوفاء. . وقت للتفكير؟ هذا كل ما كانت تفعله في الأسابيع العديدة الماضية، ومع ذلك لا زال تفكيرها مشوشاً. . ولأجل سلامة عقلها يجب أن تترك العمل لجان في أسرع وقت ممكن. لكن لو أرادها أن تبقى حتى نهاية مدتها. . أربعة أو خمسة أسابيع أخرى. . فستفعل. لقد وافقت على هذا الاتفاق منذ البداية. . عدا عن هذا لن تستطيع رفض أي طلب له، مهما سبب لها القبول من ألم.

مدت يدها لتدير المحرك ثم أطفأته على الفور. . يا إلهي! ألن يتوقف دماغي عن الدوران في حلقات؟ ولعنت ضعفها وترددها. . .

دفنت وجهها في يديها، تحس بتعرّق على جبهتها. . كان داخل السيارة كالفرن وكانت تشعر بخفة في رأسها. . ماذا ستقول لو طلب منها البقاء ستة أشهر أخرى إلى أن ينهي حقاً كتابه؟ ما هو العذر الذي ستعطيه للرفض؟ هناك إمكانية كبيرة أن يسألها هذا. . فهي على كل الأحوال بارعة

في عملها. . لكن كيف يمكن البقاء ستة أشهر أخرى وهي تحبه وتريده. . وتعرف أنه لا زال يحب امرأة أخرى؟

كان دماغها يدور. . فأجبرت نفسها على الانطلاق بالسيارة وهي لا تزال عالقة في عذاب التردد.

فتح غريفز لها الأبواب، ودخلت إلى المنزل بالمفتاح الذي معها. . لم يكن هناك أثر لجان في غرفة الجلوس أو المكتبة. في المطبخ رأت البخار يتصاعد من غلاّية الماء، وافترضت أن غريفز قد أخذ القهوة إلى جان في غرفته. . لكن هذا غريب. لماذا هو في غرفته في يوم جميل كهذا؟

صعدت إلى جناحها، استحمت وارتدت بنطلوناً قصيراً وقميصاً قطنياً. . وما إن أنهت ارتداء ملابسها، حتى قرع غريفز الباب. . ودخل يبدو عليه الاضطراب والحيرة.

ـ ما الأمر غريفز؟

ـ لست أدري حقاً آنسة، مسيو مارك كان مكتئباً جداً اليوم. لقد أمضى الكثير من الوقت على الهاتف. و. . سهر كثيراً ليلة أمس.

ـ لا شك أنه يفكر بكتابه. . إنه لا يسير أبداً على ما يرام.

هز غريفز رأسه:

ـ على أي حال، عرف بعودتك. وطلب مني أن أسألك الذهاب إليه. . إنه في غرفة الجلوس الآن.

ـ سأنزل في الحال. . فشعري مبلول. . سأمشطه قليلاً.

انكمشت معدتها. . إذن جان يريد الكلام معها فوراً؟ سيطلب منها أن تبقى، أن تنتظر إلى حين انتهاء عمله. .

لم يكن جان في غرفة الجلوس. . كان يجلس خلف منضدته في المكتبة. . وتذكرت بريندا أول مقابلة لهما. . كان يرتدي الأسود كما كان يفعل في الأيام الأولى، وجعلها هذا تتساءل عن مزاجه الآن.

كان متحفظاً، ولم تكن المنضدة هي الحاجز الوحيد بينهما. كان متباعداً جداً، والابتسامة الخفيفة التي منحها إياها وهي تجلس لم تجعلها

ترتاح.

ـ جان..؟

لم يحاول الالتفاف حول الموضوع:

ـ بريندا، لدي أخبار جيدة لك، أخبار تناسبك.. لقد اتصل بي روس بالأمس ويريدني السفر إلى أميركا معه يوم الجمعة.. سنستقل طائرة بعد الظهر إلى كاليفورنيا.. وسنبقى هناك بضعة أسابيع لنجري نقاشاً مع كاتب السيناريو، ومخرج الفيلم.. وبالطبع، أنا لا أطلب منك مغادرة المنزل فوراً. منتصف الأسبوع يناسبك أكثر.. لكن هذا وضع نهاية لنقاش كان سيجري بيننا.. أليس كذلك؟

مهما طالت حياتها، لن تنسى بريندا صدمة كلماته.. ترك المنزل وسط الأسبوع؟ ارتفعت يدها إلى فمها، وكل ما استطاعت أن تفكر به في تلك اللحظة هو انحراف الطبيعة البشرية.. أفلت القرار من بين يديها، وقال لها عقلها إن هذا أفضل.. لكن قلبها بدا أن له إرادة بنفسه.. إنها ليست مستعدة بعد لهذا! ويجب أن تواجه الحقيقة الآن.. كانت تعتمد على البقاء شهراً آخر على الأقل معه.

ـ بريندا؟

حاولت أن تتشبث بسيطرتها على نفسها.. كان كل شيء من حولها يتحطم إلى شظايا صغيرة.

ـ أنا.. ألا يمكن.. أن أجيء معك؟ أعني.. أنا لا أفكر بالمغادرة فوراً و.. ستحتاج إلى سكرتيرة.

مرة أخرى لوّح بذراعه دلالة صرف نظر:

ـ لا.. روس سيأخذ سكرتيرته الشخصية.. آسف لهذا.. لكنني أعرف أنك لن تواجهي مشكلة في إيجاد عمل جديد..

نظرت إليه عبر ستارة من دموع والغصة في حلقها تجعل الكلام مستحيلاً.. كيف تمكن من إبلاغها هذا، هكذا؟ كيف يمكنه أن يتحدث كرجل أعمال؟ كل ما يشعر به شيء من الإحراج لأن فترة الإنذار بترك

العمل قصيرة.. ولهذا هو متباعد! ألا يهتم أبداً بها؟ أليس لديه فكرة كم يجرح مشاعرها ببروده هذا؟ وبعد خمسة أشهر من الصداقة..

ـ سأراك حين تعود جان.. أليس كذلك؟

لم تكن ترغب في قول شيء كهذا.. لكن حاجاتها كانت تتغلب على منطقها، على كرامتها.

ـ لا.. فهذا وداع كما أخشى، لكنني أود أن أقول..

ـ لكن يمكنني انتظارك! أستطيع البقاء هنا مع غريفز..

ـ لا تكوني سخيفة.. أينما أذهب، يذهب غريفز معي.

ـ وماذا عن الكتاب؟ لم نكد نتجاوز منتصفه!

وكادت تضحك على خداعها لنفسها.

أخذ جان سيكارة وكان صوته المخملي هادئاً كالعادة:

ـ تعرفين كما أعرف أن الكتاب كله أخطاء.. يجب أن أعيد التفكير به لأبدأ من جديد.. ولا أستطيع أن أقول متى سأعاود كتابته. أحتاج إلى راحة لبضعة أسابيع.. لا أحتاج الى العمل بنفس السرعة التي كنت أعمل بها.. وتعرفين بالضبط ما أعني بهذا.. أليس كذلك؟

أوه.. بلى، تعرف تماماً ما يعني بهذا.. هذه الأيام ليس غاضباً جداً، لذا لا يحتاج إلى التنفيس عبر الكتابة.. ليس غاضباً لكنه لا يزال غارقاً في ذكريات إليان!

أخذ رأس بريندا بالدوران.. أحست أنها قريبة من الإغماء.. كانت يداها ترتجفان فأمسكتهما معاً بشدة وكأنها تصلي:

ـ أنا.. لا أفهم لماذا أنت ذاهب إلى أميركا.. لقد قلت إن باستطاعة هؤلاء الناس أن يأتوا إلى هنا.

ابتسم وكأنه فخور بنفسه:

ـ أعرف.. والشكر في كل هذا لك.. أخرج من المنزل في أسبوع، وأغادر البلاد في التالي!

أرادت بريندا أن تضحك لهذه السخرية.. إذن لقد أعادت جان إلى

العالم الخارجي.. ومع اهتمامه الذي وجده من جديد، سيغادر البلاد ويتركها..

لو أنها تستطيع الذهاب الآن، محتفظة بوقارها. لو أنها فقط تستطيع إيقاف هذه الدموع وتصافحه وتتمنى له الخير. بكل تأكيد هكذا أفضل.. والأفضل أن لا تراه مجدداً.. أبداً! من الأفضل أن تُحرم من بضعة أسابيع أخرى معه. أسابيع ستكون مرّة حلوة كتلك التي مرت.

لكن المنطق لا دور له هنا، وانهارت.. تنتحب بهدوء وعجز، محطمة.

ـ بريندا.. أرجوك..

كان في صوته شيء من الدهشة.. ومد يده ببرود إلى جيبه ليعطيها منديله:

ـ بريندا.. لماذا تكدرت بحق السماء؟ أنا ممتن جداً لك وتعرفين هذا، كنت لطيفة جداً معي في الأشهر الأخيرة.. ولن أنسى..

هجرتها قدرتها على السيطرة على نفسها تماماً، وقاطعته بغضب:

ـ لطيفة! لطيفة! جان.. أنا أحبك! أتسمعني؟ أحبك.. ولقد أحببتك منذ زمن طويل!

هيمن الصمت في الهواء بينهما.. لقد قالتها.. ولا يمكن أن تسحبها.. والأهم، أنها لم تهتم بشيء أبداً. لا تهتم كم أنها غبية كبيرة.. الآن ظهرت.

لثوان طويلة بقي جان مارك دون حراك. ثم تقدم إليها، وعيناه مغمضتان بحيث لم تستطع معرفة أفكاره. مسح بلطف الشعر المبلل عن وجهها:

ـ بريندا.. عزيزتي بريندا.. هل يتسع لطفك إلى درجة أن تقولي لي هذا؟ يا طفلتي العزيزة!

دفعت يده عنها، تكره منه محاولة إظهار العطف عليها:

ـ لا تتهمني بهذا جان.. لقد قلت لي كم أنا لطيفة عشرات المرات.

وأنت الآن تهينني.. أنا أحبك.. أحبك أكثر من أي شيء في العالم.. وهذا أمر لا علاقة للطف فيه.

تلاشى صوتها.. لا جدوى من كل هذا.. إنه لا يصدقها، أو أنه يرفض أن يصدقها، وهذه طريقته بالبقاء منعزلاً لإبقائها على مسافة منه، لأنه لا يستطيع بأية طريقة من الطرق أن يتجاوب.. لا شيء عنده يعطيه، لا شيء يمكنه أن يعطيه لها.

ـ بريندا.. إصغي إليّ.. أشعر بالغرور لكلامك هذا.. لكن إحساسك ليس حقيقياً.. مع الوقت، سترين أنه مجرد امتداد للطفك، لطبيعتك اللطيفة.. ألا ترين هذا؟ لديك قدرة عطاء كبيرة.. وهذا من الأمور الأولى التي عرفتها عنك. لقد أخبرتني عن طريقة عنايتك بوالديك قبل أن يموتا.. ثم حين التقط دان وولديه الرشح، أول ما أردت فعله هو الإسراع إليهم.. حتى أنك أردت التخلي عن شقتك، وعملك، كي تعتني به وبولديه.. فعلت كل هذا دون التفكير بنفسك.. وما كنت تفكرين بحياتك الخاصة. تدعين أنك واقعية، لكنك رومانسية إلى أقصى الحدود. ولقد قلت لك هذا مئة مرة.. جئت إلى هنا ورأيت فيّ رجلاً عزل نفسه عن الحياة، وقمت بجهد عنيد كي تتواصلي معي، كي تظهري لي أن الحياة لا زال لديها أشياء تقدمها.. حسناً.. لقد نجحت وسأبقى إلى الأبد ممتناً لك لأجل هذا.

لم يعمل اللطف في صوته سوى على مضاعفة الألم في قلبها، إنه يتكلم عن امتنانه وهذا آخر ما تريده، ولم تقل شيئاً.. لا داعي لقول شيء أبداً.. وأكمل:

ـ صمتك يخبرني الكثير.. أفهم مشاعرك.. تعتقدين أنني مخطىء، تعتقدين أنك تحبينني.. صدقيني، سترين الأشياء مختلفة جداً بعد بضعة أسابيع.. عزيزتي، أنا عشت أكثر منك وسرعان ما ستعرفين أنني محق، ستعيدين النظر في فترة إقامتك هنا، وستكون ذكرى مبهجة كما أرجو.. لكنها لن تكون أكثر من هذا.. مع الوقت، ستلتقين بشخص

ما وستحبينه حقاً، وأرجو الله أن يكون يستأهلك، شخص يستطيع تقديم حياة طبيعية لك . .

- جان . . أريد الذهاب الآن . . أشعر فعلاً أن الأفضل لي أن أترك الآن . . في الحال.

وقفت بريندا، مجبرة نفسها على لقاء عينيه اللتين تعلمت قراءتهما جيداً، كانتا كئيبتين رماديتين كما كانتا مرات عديدة فيما مضى . . إذن فهو يشعر بشيء نحوها! ليس كثيراً، لكن بما يكفي لكي لا يتمكن من إخفاء عطفه عليها . . ولم يكن هذا محتملاً لكليهما.

قال: أجل . . ربما أنت على حق . . سيكون هذا الأفضل.

تحرك مبتعداً فاتجهت بسرعة نحو الباب.

- دعيني أعرف متى كنت مستعدة.

- لا . ! لا تأتي لوداعي! إذا أردت أن تسهل عليّ هذا قليلاً فابق حيث أنت . . أرجوك.

هز رأسه ببطء وابتسامة متشنجة تشد أطراف فمه: وداعاً بريندا.

- أورڤوار جان.

بقيت معظم ثيابها دون توضيب ورمتها في السيارة دون اعتناء . . حلّ خدر ذهني عليها بحيث كانت تتحرك كرجل آلي . . وكان غريڤز يقف إلى جانبها في المرآب متكدراً غير مرتاح.

- هذا كل شيء آنسة، لم يبق شيء في غرفتك . . أنا . . لست أدري ماذا يجري لكنني آسف جداً لرؤيتك هكذا.

أجبرت نفسها على الابتسام له . . العزيز غريڤز . . كم أصبحت متعلقة به!

- ستذهبان إلى أميركا يوم الجمعة . . هذا ما يجري . بعد خمسة أيام، ستكون مع سيدك في كاليفورنيا المشمسة . . آوه . . غريڤز . . لا تنظر إليّ هكذا! سيشرح لك كل شيء.

- لكنك ستعودين . . ألن تفعلي؟ حين نعود؟

- لا . . جان لن ينهي كتابه . . على الأقل ليس الآن . إنه . . وداعاً غريڤز.

رمت بذراعيها حول عنقه، ورفعت نفسها تعانقه: اعتني بنفسك!

صعدت وراء المقود وأنزلت زجاج نافذتها.

- غريڤز . . لديك عنواني . . إذا كان هناك . . إذا ظننت يوماً أنني قد . . أعني . . إذا كان المركيز . . .

ولم تعرف ماذا تريد أن تقول . . لكن غريڤز فهم:

- سأفعل آنسة . . أعرف مشاعرك.

وراقبها وهي تبتعد . . مرتبكاً لانقلاب الأحداث المفاجيء . . ثم دخل متصلباً إلى الداخل ليكلم سيده . . متلهفاً لكي يعرف ماذا يجري حقاً.

* * *

عند منتصف الليل، كانت بريندا لا تزال ترتدي بنطلون الشورت والتي شيرت وتجلس في مطبخ شقتها، تمسك بين يديها فنجان قهوة ومنذ زمن طويل . . لم تذكر أنها صنعته . لا تذكر أنها قادت سيارتها من «باكنغهامشاير» إلى «پادنغتون» . . لكنها تتذكر كل كلمة مرت بينها وبين جان، بعد ظهر ذلك اليوم . . حتى آخر كلمة.

لم يكن إحساسها يضاهي أي إحساس خبرته في حياتها . . الرجل الذي كان محور حياتها رحل عن حياتها بسهولة . مثلما سمح لها أن تدخل عالمه بالقليل القليل من المشاعر، تركها مع قلب يتألم بحبه . . وبالاضافة إلى هذا عرفان بالجميل . . .

كيف يمكنه أن يُرجع حبها إلى اللطف؟ رجل مثله لديه قدرة هائلة على فهم العواطف البشرية كيف يمكنه أن يخلط بين الاثنين؟ ربما لم يخلط بينهما . . ربما كانت هذه طريقته لتجنب المزيد من الإحراج.

أجبرت بريندا نفسها على السير إلى غرفة الجلوس . . بعد أن تصلبت من الجلوس في وضعية واحدة . . أول ما وقع عليه نظرها كانت نسخة

لوحة مارك.. على الصوفا. كان هناك الملابس التي رمتها عليها ساعة وصولها، فدفعتها بعيداً إلى الأرض وجلست مجدداً غير قادرة على خلع ثيابها، غير قادرة على إبعاد عينيها عن اللوحة.

كانت الساعة الثالثة صباحاً حين ذهبت إلى الفراش أخيراً، ولم تكتب شيئاً في مفكرتها.. لم تكتب فيها شيئاً منذ تحدثت مع جان عن مارك، ذلك اليوم الذي اضطرت فيه لأن تتقبل أن كاتلين كانت على حق طوال الوقت.. وماذا يمكنها أن تكتب الآن؟

استيقظت بريندا في الساعة الخامسة.. فبعد ستة أشهر من الاستيقاظ المبكر، تكيفت على هذا وسيطول أمد عودتها إلى طبيعتها.. فتحت عينيها بحدة من نوم قلق دون أحلام.. حين أدركت أنها في شقتها تملكها الذعر. كان هدوء الغرفة صاخباً في أذنيها، وما هي إلا ثوانٍ حتى امتلأ تفكيرها المشوش بالتساؤل.

ما الذي ارتكبته من غلط جعله لا يطلب منها البقاء؟ سيغيب في كاليفورنيا لأسبوعين فقط كما قال.. فلماذا لم يسألها متابعة الإقامة أو العودة بعد أن يعود؟ لا يتعلق الأمر بخوفه من أن تحرجه، فهي في تلك المرحلة لم تكن قد باحت بمشاعرها.

حقاً.. الطبيعة البشرية غريبة.. أجل.. أو أن الناس الواقعون في الحب يتصرفون دون منطق.. كل ما فعلته أنها قالت لجان إنها تريد أن تتناقش معه مسألة عملها.. لو أنها لم تقل هذا، لم تقل شيئاً عن رحيلها.. لربما كان أبقاها معه.. ولربما كانت معه الآن.

خرجت من السرير تشعر بالتعب مثلما كانت ساعة دخلته. في المطبخ رشت الماء البارد على وجهها، وأقفلت الستائر غير قادرة على تحمل إشراقة شمس الصباح.. مع حلول موعد الغداء كانت قد استحمت وارتدت روبها لتعود وتجلس مجدداً تحدق في الفراغ.

ما كان يؤلمها أكثر من أي شيء آخر، هو الإحساس بالنبذ الكامل. أحست وكأنها لا تنفع لشيء ولا لأحد.. لن تتغلب على الطريقة التي

صرفها بها جان ببرود تام.. نمت الثقة بالنفس كامرأة التي كانت تنقصها، خلال أشهر إقامتها مع جان.. لكنها تحطمت قطعاً صغيرة لمعاملته لها.. كل تعاليمها الأخلاقية، كل عقلها السليم، لم يحضراها لمثل هذا.

من كانت تخدع طوال تلك الأشهر؟ يمكن للمرء أن يخدع نفسه لمدة قصيرة هذا إذا استطاع. بالطبع كانت تأمل بمستقبل ما مع جان. بالرغم من كل شيء استمرت في الأمل.. إنها من البشر.. وكيف لبشريّ أن يحب بمثل هذا العمق دون أمل أن يعود له ولو القليل من حبه؟ القليل.. القليل فقط.

قدم يوم الأربعاء وهي تجلس على الأريكة، لا تزال غير قادرة على أن تجد سبباً وجيهاً لكي ترتدي ملابسها.. كانت تعيش على الشاي والتوست.. الثياب التي دفعتها إلى الأرض منذ أيام كانت لا تزال ملقية هناك.. أحست أنها مرهقة جسدياً وفكرياً، لم يتصل بها أحد ولم تحاول الاتصال بالعالم الخارجي.. ولم تتصل حتى بالوكالة.. فالعمل سيكون مستحيلاً لها.. لن تستطيع العمل في وقت كل ما تريده حقاً أن تتكور في مكانها وتموت.. صحيح أن حياتها كانت فارغة قبل أن تلتقي جان لكنها الآن قاحلة عقيمة! بالنسبة لها لن يكون هناك سواه.. ولا أحد مثله.. إنه كل شيء أرادته واحترمته في رجل.. وهي صعبة الإرضاء كثيراً.

الأمر غريب فعلاً، لقد فكرت كثيراً في اليوم الذي ستضطر فيه إلى مغادرة سيلينا هاوس، لكنها لم تفكر أبداً كيف ستكون الحياة دون جان ولا حتى كيف تكون بضعة أيام دون رؤيته.

كان جزء متعقل من دماغها لا يزال يقول لها إن كل ما حدث هو للأفضل.. من الأفضل أن تصاب بصدمة حادة واحدة بدلاً من أيام وأيام من الألم والعذاب. لكن هذا الصوت في رأسها لم يُعزها.. ولم تؤمن به حقاً.

كانت لا تزال غير قادرة على النوم.. بعد منتصف الليل بقليل ذلك المساء، قامت بشيء لم تفعله من قبل، خرجت من شقتها تسير في

الشوارع لمدة ساعتين. لم تكن تحاول أن تتعب جسدها بل أن تهدىء تفكيرها، أن توقفه عن الدوران في حلقات فارغة.. أن توقف نفسها عن القول: لو أنني فقط.. لو أنني فقط..

صباح الجمعة، أخرج رنين الهاتف الحاد بريندا من نصف غفوتها.. وسارعت لتجيب وقلبها يضرب بين ضلوعها، فهذا اليوم هو موعد سفر جان إلى كاليفورنيا.. أيمكن أن يكون هو؟ هل هناك أمل أن يكون قد غيّر رأيه؟ قبل أن تصل إلى الهاتف، أنبت نفسها.. لن يكون هذا جان.. فحتى لو أراد، لن يطلب عودتها الآن وقد بدت حمقاء أمامه وأحرجته بإعلانها حبها.. وكأنها مراهقة مهووسة.

وكان دان.

ـ بريندا، ما الذي يجري؟ اتصلت بمنزل المركيز ليلة أمس وقال لي ذلك الرجل ذو الصوت الأجش إنك لم تعودي تعملين هناك.. ماذا حصل؟ هل أنهى كتابه؟

ـ أجل.. انتهى، وانتهت الوظيفة.

فيما بعد ستخبر دان الحقيقة. لكنه لن يعرف أبداً ما حصل فعلاً. وبقدر ما كانت متلهفة للكلام مع شخص ما، فدان هو آخر شخص قادر على الفهم.

كم تتشوق إلى من تتحدث إليه! لو أن كاتلين هنا.. لكن كاتلين تبعد مئتي ميل الآن، وآخر ما تتوقعه اتصال هاتفي هستيري من بريندا بعد بضعة أيام من عودتها من شهر عسلها.

لم تقل كلمة لدان.. بل بقيت هادئة وتركته يثرثر. وهي تصغي، لمحت نفسها في المرآة.. إنها تبدو كالشبح: تحت عينيها دوائر سوداء.. شعرها غير مغسول، غير مسرّح. وتبدو سقيمة.

قال دان: أريد رؤيتك نهاية الأسبوع.

ـ ماذا؟ أوه.. لا.. لن آتي هذا الأسبوع.. أنا.. لست على ما يرام.. لا أستطيع تحمل الولدين.

ـ لا أريد أن أراك هنا أختي.. سأجيء لأراك.. هناك.. هناك شيء أريد أن أقوله لك.

نظرت بريندا مستغربة إلى سماعة الهاتف:

ـ حسن جداً.. أعني بالطبع تستطيع المجيء.

يا إلهي.. يجب أن تتماسك.. لا تريد أن يعرف دان أن هناك شيئاً خاطئاً.. كيف ستتمكن من إخفاء واقع أن عالمها انهار إلى قطع متناثرة؟

ـ غداً بعد الظهر؟

ـ أجل.. أجل دان.. في أي وقت تشاء.

بعد أن وضعت السماعة من يدها، أجبرت نفسها على أن ترتب نفسها وبيتها قليلاً.. يجب أن تقوم بجهد مهما كان الثمن، لا تريد أن يجدها أخوها تبدو كالميتة والشقة في فوضى. منذ اتهمها بأنها تقع في حب جان، لم تعد تذكر المركيز أمامه سوى بطريقة عفوية.

قبل الظهر بقليل، خرجت إلى دكان عند زاوية الشارع لتشتري القهوة والخبز.. فيما بعد ذهبت إلى حديقة عامة صغيرة تبعد بضع مجمعات سكنية عن منزلها. كان يوماً دافئاً، والسماء رائعة الزرقة تعلن بداية أواخر الخريف.. أغمضت بريندا عينيها تتصور أراضي سيلينا هاوس.. ستكون رائعة تخطف الأنفاس حين تتغير أوراق الشجر إلى اللون الخريفي.

وهي تستدير عائدة إلى شقتها، رأت سيارة تاكسي متوقفة أمام مدخل المبنى.. ولم يخطر ببالها أبداً أن شخصاً ما يزورها، لذا لم تستعجل.. حين وصلت الباب الرئيسي، رأت لفافة ضخمة تستند إلى الجدار، وسائق التاكسي يضع إصبعه على جرس بابها.. ومضت ثوان قبل أن تجد صوتها:

ـ هل.. هل هذا لي؟

بدا الارتياح على السائق:

ـ أنت الآنسة توماس؟ أجل.. وهذه أيضاً.

ووضع في يديها لفافة صغيرة وعرض حمل اللفافة الكبيرة إلى

الداخل.

ـ أجل.. أنا أسكن الطابق الأول..

فتحت الباب بأصابع مرتجفة.. وتفكيرها يدور بارتباك. كانت تعرف ما بداخل اللفافة كما تعرف أنها لن تتمكن من حملها دون مساعدة. كانت ملفوفة بشكل جيد لكن الشكل لا يمكن إخفاؤه.

أسندها السائق على جدار غرفة الجلوس.. وأعطته بريندا إكراميته وشكرته. ثم وضعت كيس مشترياتها واللفافة الصغيرة على الأرض ووقفت تنظر إلى اللوحة المغطاة دون تصديق.

لماذا؟ لماذا فعل جان هذا؟ بماذا فكر وهو يرسل لها لوحة أصلية قيمتها آلاف الجنيهات؟ هل هذا دليل آخر على عرفانه بالجميل؟ الجميل الذي لا تريده؟

ركعت على ركبتيها وانتزعت اللصوق الصغير فوق الورق الأسمر..

تحت الورق كان هناك كرتون مضلع للحماية، وصنعت ثقباً فيه لترضي فضولها برؤية أية لوحة هي.. لا تنوي فتحها ولا استبقاءها.. لن تستطيع هذا.

كانت اللوحة التي تحتل مكانها فوق المدفئة في المكتبة.. تلك التي تمتعت برؤيتها يوماً بعد يوم خلال خمسة أشهر، تلك التي أثارت ذكرياتها لأول مرة يوم تعرفت على المركيز.

نظرت إلى ساعتها.. يجب أن يكون هناك تفسير لهذا.. ولقد قدم لها جان العذر المناسب لتتصل به.

لكن الوقت متأخر جداً.. ولم يكن هناك رد من المنزل.. لا شك أن ساكنيه متجهان الآن إلى أميركا، لكن بالطبع لم يكن في نية جان أن يدعها تتصل.. ولقد وقّت التسليم في هذا الوقت عن قصد لعلمه أنه لن يكون موجوداً مع وصول سائق التاكسي إلى لندن. إنه لا يريد أن يتحدث إليها.. وهذه اللوحة مجرد هدية ولا يجب أن تفهم أي شيء منها.

على أي حال، هناك شيء آخر أهم من هذا.. فقد تذكرت اللفافة

الصغيرة الأخرى، وفتحتها دونما اهتمام.

كان في اللفافة شريط مسجل.. فتحركت كالبرق لتجلب مسجلتها بيدين مرتجفتين.

كان صوت جان المخملي يتحدث إليها بوضوح وكأنه يجلس قربها:

«مرحباً بريندا.. أرسل لك هذه اللوحة لأنني أعرف كم تحبينها.. إنها لك.. وأرجو أن تعتبريها ضيفة في منزلك كما كنت أفعل، وضبت اللوحات الثلاثة الأخرى وأرسلتها إلى المعرض الذي عرض أولى لوحاتي في انكلترا فأنا مستعد للتخلي عنها.. وأعرف أن هذا سيسعدك».

ساد صمت قصير.. حين تكلم ثانية، كانت الكلمات أكثر بطئاً:

«ستدركين الآن أنني اهتممت بملاحظاتك حين ناقشنا أول مرة أمر مارك.. كان لدي إحساس أنك لم تصدقيني حين قلت إنني تركت الماضي وشأنه.. وهذا هو الدليل.. هناك أشياء كثيرة أخرى في الحياة أحصل منها على سعادتي، والشكر كله لك.. وداعاً بريندا.. واذكريني من وقت لآخر».

لأول مرة منذ تركته، بكت بريندا.. سيطرت شهقات كبيرة متشنجة، عليها وتركت جسدها خالياً من الطاقة. إذن، جان فعلاً رجل أكثر سعادة هذه الأيام.. على الأقل ذاب جليد قلبه بما يكفي ليزعج نفسه بإرسال هدية لها.

جلست على الأرض، تكرر سماع الشريط مرات ومرات. لقد جاء دورها الآن لتتكيف.. عليها كذلك أن تواجه المستقبل.. مستقبل دون جان. لم يعد يحتاج إليها ويجب أن تترك الماضي وعواطفه، يجب أن لا تفكر بنفسها أو بألم قلبها.. يجب أن تكون ممتنة لأنها تمكنت من القيام بشيء ما.. مهما كان صغيراً.. لجان مارك..

ربما بعد قليل من الوقت، سيتمكن من نسيان إليان!

* * *

١٣ ـ الحب يعمي أيضاً

في الساعات الأولى من الصباح التالي، استيقظت بريندا لتجد نفسها مبللة بالعرق بعد أن شاهدت حلماً مثيراً للاضطراب.. فقد استمرت ترى جان في مختلف أحواله، يجلس إلى البيانو معها، يضحك وهي تغني.. ثم رأته يجلس تحيط به هالة باردة من الوحدة في الحديقة.. ثم رأت أنها تجلس معه في المكتبة تتلقى الإملاء، وفي اللحظة التالية أحست بلمسته الناعمة على وجهها حين كان «ينظر» إليها لأول مرة.

تركها الحلم في انزعاج شديد، وخائفة.

أمضت الصباح وهي تنظف، تعمل بشكل محموم، وكأنها بهذا ستطرد كل ذكرى لكل لحظة لها في سيلينا هاوس.. ربما حين تصبح مرهقة جسدياً، تستعيد هدؤوها.

وصل دان بعد الظهر.. لو تمكنت من اجتناب أخيها لأسبوعين فقط، لربما تمكنت من استعادة رباطة جأشها.. لكن الجرح لا زال طازجاً.. وكل ما تريد أن تخفيه عنه كان محفوراً بوضوح على وجهها.

ـ يا إلهي.. تبدين مريعة!

هذه كانت تحية دان لها حين فتحت الباب له، فابتسمت:

ـ إنه مجرد رشح.. يقال إن رشح الصيف أسوأ من حد السيف، أليس كذلك؟

لحق دان بها إلى المطبخ:

ـ لكنك فقدت الكثير من وزنك بريندا. هل كنت حقاً مريضة؟ لماذا لم تبلغيني؟ ظننتك تتمارضين نهاية الأسبوع المتصرم.. كنت هادئة جداً..

أجبرت نفسها على الابتسام.

ـ لا تفتعل ضجة.. إذا كنت قد فقدت من وزني فهذا أفضل لي. شاي أم قهوة؟

ـ ما هذه اللفافة في غرفة الجلوس؟ أوه.. قهوة من فضلك!

استدارت عنه تشغل نفسها بتحضير القهوة ولوازمها.

ـ لا يفوتك شيء.. أليس كذلك؟ إنها نوع من الإكرامية للعمل الذي قمت به.. من مارك.

ـ أتعنين أنها إحدى لوحاته؟ يا للسماء، إنها تساوي ثروة! لا يمكنك قبولها بريندا.

ـ أعرف هذا.. جيء بالصينية معك، أتسمح؟ وغيرّ الموضوع! أنت هنا لتقول لي أخبارك.. ألا تذكر؟

ـ لكنني لا أفهم.. إكرامية؟ لا يعطي المرء إكرامية تساوي آلاف الجنيهات، مهما كنت كفؤة! ما الداعي؟

تقدمته بريندا، تقول لنفسها إنه يبدي الفضول حسب طبيعته.. المشكلة أنها لا تعرف بماذا ترد عليه.

ـ ربما للمركيز مال أكثر مما له عقل.. لكنني بالتأكيد سأعيدها.

لم يقل دان شيئاً آخر، مع أنه لم يكتف بردها.. بل نظر إليها بقسوة مطولاً.. كأنها أهانته في ذكاءه.. لكنه لم يضغط عليها للمزيد... مع أن أعصابها قد وصلت مرحلة الانهيار.

لكنها ابتسمت مع انفراج وجهه بابتسامة:

ـ إذن ماذا لديك لتقول لي؟

لم تكن قد شاهدته مسترخياً هكذا منذ زمن بعيد.

ـ ألا يمكن أن تخمني؟

- بدأت لتوي أفهم شيئاً. . أيمكن أن يكون لهذا دخل بك وبداغمار؟

أخذ دان غليونه من جيبه، وهو لا يزال يبتسم، ثم رمى سترته على ظهر كرسي.

- سألتها أن تتزوجني.

- أوه. . دان! هذه. . إنها مفاجأة! أليس كذلك؟

- لا. . ! إنها معي الآن منذ خمسة أشهر. . ويمكنك معرفة شخص ما جيداً في خمسة أشهر. . خاصة حين تعيشين معه تحت سقف واحد.

خمسة أشهر؟ بالطبع خمسة أشهر! كيف طار الوقت. . ثم. . أجل. . يجب أن يعرف المرء شخصاً بشكل جيد حين يعيش معه لمدة طويلة. . يجب على المرء. .

تابع دان يقاطع أفكارها:

- لقد حدث هذا فجأة أختي. . أعجبت بها منذ البداية وتعرفين هذا، ولن تصدقي كم نحن متفقان. . كم نحن منسجمان! لدينا أشياء كثيرة مشتركة. . والولدان يحبانها كثيراً. . هل أنت سعيدة لأجلي بريندا؟ أرجوك قولي نعم!

- أوه. . حبيبي. . بالطبع أنا سعيدة! وأتمنى لك كل السعادة. . وتعرف هذا. . إنها أخبار رائعة! سأتصل بداغمار فيما بعد لأهنئها. أنا مبتهجة دان. .

كانت سعيدة جداً. . كانت تريده أن يتزوج ثانية، وداغمار هي المرأة المناسبة.

تقدم دان يحتضنها: أوه. . بريندا. . أنت إنسانة لطيفة.

على الفور، بدأت الدموع تتجمع في مؤخرة عينيها. . يا له من كلام يقوله، وهو آخر ما تريد سماعه. . قالت:

- سئمت سماع هذا. . منك و. . ومن الآخرين. . ثم لا داعي لهذا الكلام، وهو سخيف. . وما هو رد الفعل الذي توقعته مني غير هذا؟

عاد إلى مقعده، نفض غليونه وتجنب النظر إليها وهو يملأه مجدداً.

- عرفت أن هذا سيسرك. . كان لديك فرصة مناسبة للانتقام مني لردة فعلي الحمقاء السخيفة يوم قلت لي إنك وقعت في حب المركيز. . لكنك لم تستغلي الفرصة ولهذا أنت لطيفة.

- أنا لم أقل لك أبداً إنني أحب المركيز.

التقى بعينيها:

- لم تكوني بحاجة كي تقولي. . كما لست بحاجة الآن لكي تقولي إن شيئاً رهيباً حدث. . مع أنني أرجو أن تقولي لي. . شاركيني سرك بريندا. . ولا تقولي لي المزيد من الهراء عن أنك مصابة برشح صيفي.

بدأت بريندا تبكي مع بدئها بالكلام. . لم تتوقع منه أن يفهم مع أن الحب دخل حياته، ولم تقل له كذلك كل شيء، وأصغى دان باهتمام. . لم يستعجلها أو يقاطعها إلى أن غلب عليها البكاء ولم تعد تستطيع أن تتكلم. . ثم قام بإعلان رأيه بالقضية، وكان رأياً صدمها حتى الأعماق.

- لا أستطيع اتهامك بالغباء بريندا. . لأنك لست غبية. الأمر ببساطة أنك قريبة جداً من المسألة بحيث لا تستطيعين النظر إليها بموضوعية. رأيي أن جان مارك لا يشعر فقط بما تشعرين به. . لكنه يحبك كثيراً بحيث أنه قام بالتضحية المثالية. . تركك ترحلين.

مر جزء من الثانية صدقته فيها، لأنها أرادت أن تصدق. ولأن دان يقول هذا. ودان متعقل جداً ومنطقي. . لكن تفكيرها السليم عاد إليها بسرعة.

- عم تتكلم؟ كيف وصلت إلى هذا الاستنتاج بحق السماء؟

ارتفع صوتها إلى وتيرة مرتفعة جداً. . لكن دان رد بهدوء يهز كتفيه وكأنما كل شيء واضح:

- من عشرات الأشياء التي قلتها لي. . المركيز وثق بك واحترمك. . وهذا بالتأكيد ما ترينه بنفسك. . نمت علاقتكما ببطء، بالرغم من أنه كان يقاوم. . ألا ترين لماذا المقاومة؟ ألا ترين الآن لماذا أبعدك عن حياته؟

- دان.. هناك شيء لا تفهمه..

- لأنه أعمى بريندا.. إنه أعمى!

وقفت بريندا.. غاضبة خائبة الأمل.

- هذا كلام سخيف تماماً! أنت تترك لتحيزك أن يلوّن تفكيرك! لا يهمني كونه أعمى! وهو يعرف هذا.. لقد اتفقنا على هذا منذ اليوم الأول!

مال دان إلى الخلف في كرسيه بطريقة باردة مثيرة للسخط وأشعل غليونه ببطء:

- الآن أعتقد حقاً أنك غبية.

- أريدك أن تذهب الآن دان.. أنا متعبة جداً.. وبصراحة أنت آخر شخص يمكنه فهم موقف كهذا.

وقف فجأة يدفعها إلى الوراء لتعود إلى الأريكة:

- اجلسي واخرسي!

مضى زمن طويل طويل لم تره فيه منزعجاً هكذا.. واستنتجت بأنها فعلاً جرحت مشاعره.

- في حال لم تفهمي ما قلته قبل الآن.. لقد اعتذرت لملاحظاتي حول إعاقة جان.. أعرف الآن أنك حين تقعين في حب شخص ما، لا تتوقفين لتفحصي عيوبه.. داغمار تكبرني بخمس سنوات.. وهي من بيئة مختلفة جداً عني.. غير متعلمة.. وعرفت مؤخراً أنها لم تكن أرملة حين كان ابنها في الثالثة.. بل هجرها عشيقها حين اكتشف أنها حامل، وهي لم تتزوج أبداً.. لكن هل تعتقدين لدقيقة واحدة أن هذا يجعلني أحس بشكل مختلف نحوها؟ وأنني كنت سأغير رأيي لأن ماضيها لا يخلو من عيوب؟ أنا أحب ما هي عليه.. كما تحبين أنت جان.. بنظر أو بغير نظر.. أنا أتعلم.. أترين؟ أنا لست المتوحش الذي لا إحساس له كما تعتقدين.. أعرف أن عمى جان لا أهمية له عندك، ولكن له أهمية عنده.

نظرت إليه بريندا بذهول.. لا بد أن داغمار أثرت عليه أكثر مما ظنت، ومات غضبها بسرعة.. دان يحاول أن يفهم وهي ممتنة له لأجل

هذا.. لكن هناك شيء يفهمه خطأ:

- هناك شيء لا تفهمه.. أنا.. جان وأنا، كنا صديقين، وهذا كل شيء.. أترى.. إنه.. لا يزال يحب زوجته.

نظر إليها دان وكأنها تهذي:

- هل هذا ما قاله لك؟ وابتلعت الطعم؟ ألا ترين أنه كان يحاول..

لوحت بيديها بنفاد صبر:

- لا.. لا، لم يقل لي.. لم يكن بحاجة لأن يقول، إنها الحقيقة دان.. كان يجب أن أرى الحقيقة منذ زمن طويل، منذ مدة قالت لي كاثلين هذا.. لكنني توصلت إلى قناعتي بنفسي وأنا..

قطب:

- كاثلين؟ هل هذا هو رأي كاثلين؟

- حسناً.. أولاً.. أجل.. لكنه أمر واضح إذا فكرت به.. ألا ترى.. أوه دان، هناك أشياء كثيرة لا تعرفها..

- أخبريني إياها إذن.. لدي كل الوقت، ولسوف أحل هذه المشكلة بريندا.. هيا.. بالتأكيد يمكنك الثقة بأخيك؟

حين لم ترد، ضغط أكثر:

- أرجوك ثقي بي أختي.. سأفهم، وتعرفين هذا.. أخبريني كل شيء.. أخبريني كل التفاصيل.

تكلمت بريندا أكثر من ساعتين.. وعادت إلى البداية لتقول له كل شيء، كل الاستنتاجات التي توصلت إليها عن جان وحزنه على فنه، وكيف أقنعها أنها مخطئة.. كل شيء.

حين انتهت، رفعت رأسها لتجد دان يبتسم لها بصبر:

- الأمر بوضوح الأنف الذي في وجهك عزيزتي.. المشكلة أنك لا تستطيعين الرؤية بوضوح.. فكري بالأمر الآن! فكري بالفرق بين الرجل الذي وصفته لتوك والرجل الذي أخبرتني عنه في البداية.. انظري إلى الفرق! ألا ترين كم أثرت على حياته؟

- أجل. لكن. كاثلين..

- كاثلين مخطئة. كما أنت الآن مخطئة.

- لكن ليلة ذهبنا إلى الأوبرا. اعترف جان أنه كان يفكر بزوجته.

ضحك ضحكة جوفاء:

- وماذا في هذا؟ هذا أمر يحدث من وقت إلى آخر. يمكن أن يكون أي شيء ولو صغير جداً هو الذي ذكره بها. ربما عطر امرأة أخرى، أو شيء قلتِه أنت له، أو ربما الموسيقى. أشياء كهذه تحدث من وقت لآخر، أتظنين أن يوماً يمر دون أن أتذكر سالي؟ ثم ليس لديك دليل يُظهر أن جان كان يتمتع بذكرياته. لقد قلت إنه أصبح مكتئباً.

- أجل. لكن، بالتأكيد..

- اسمعي بريندا. لقد أبعدك جان عنه لأنه أعمى. أقول لك هذا، فكري بالأمر بعقلانية.. إنه أكبر منك بسنوات. ثم هناك اعتبار الأولاد. كيف سيتمكن من التعامل معهم؟ ألا ترين أنه خائف لأن هناك أشياء كثيرة لن يتمكن من مشاركتها معك؟ لقد تركك ترحلين لصالحك أنت!

لم يعد صوتها مسموعاً، لأنها لم تجرؤ على السماح لنفسها بالتفكير أن هناك بعض الحقيقة في كل هذا أو بعض أمل:

- لا.. لا.. أنت المخطىء..! لقد قلت لك كم هو كفؤ، وسيتمكن من التعامل مع الأولاد. حتى ولو. ولو كان لا يحبني. فهو لا يؤمن أنني أحبه! يجب أن نواجه الحقائق!

هز دان رأسه، ينظر إليها بمزيج من نفاد الصبر والشفقة. وبكثير من الحب.

- مشكلتك الرئيسية أنك لا تصدقين كم سهل الوقوع في حبك، وكم أنت مميزة. أنت لا تصدقين أن جان يمكن أن يحب ما تزعمين أنها فتاة قبيحة مثلك. لكنه يحبك. وبما أننا نتعامل مع الحقائق أخيراً بدل النظريات، فكري بهذا: لطفك أمر واقعي. وجان يعرف هذا كما أعرفه

أنا.. ألا ترين أنه لا يستطيع أن يطلب منك البقاء معه أو العودة إليه فيما بعد.. في وقت يظن أنك قد توافقين بداعي اللطف؟

أخذت بريندا سيكارة. يداها ترتجفان وأفكارها تدور بارتباك:

- لكنه يعرف أن عماه لا يهمني!

سألها دان بهدوء وهو يقف على قدميه:

- أيعرف حقاً؟ أيعرف؟ أنا ذاهب الآن.. سأتركك تفكرين بهذا.. لأجل السماء، لا تبدأي بالبكاء مرة أخرى!

ضحك ساخراً لأنه أراد أن يوضح وجهة نظره.

- تتكلمين عن الألفة الجميلة بينك وبينه.. هاه! يبدو لي أنكما أضعتما وقتاً أطول مما يجب تلعبان البيانو وتتمشيان تحت ضوء القمر.. ولم تصلا إلى التواصل الحقيقي. عودي إلى سيلينا هاوس بريندا.. وتواصلي.. حاولي استخدام كلمات جيدة وقديمة.. فلن يحدث بينكما تخاطر روحي!

ليس هناك مجال للإنكار أن هناك كثير من الحقيقة فيما يقول.. عند الباب وضع ذراعه حول كتفي بريندا:

- يعجبني ما بدا لي من جان مارك.. وكلما أسرعت في العودة إلى تعقلك، كلما أسرعت في الترحيب به كصهر..

- ماذا.. ماذا تعني؟

رفع نظره إلى فوق، وعلق سترته على كتفه ودس غليونه بين أسنانه:

- سأقول هذا فقط: حين قلت لداغمار إنني أحبها، ابتسمت بحزن.. وطلبت مني أن لا أخلط الحب بالامتنان نحوها لكل ما تفعله لي ولولداي.. فهل عرضت عليها الوظيفة لخمس سنوات لأبرهن لها عن حبي؟ لا.. لقد برهنت لها بالطريقة الوحيدة التي أستطيعها.. ولقد سمعت بها اليوم.

نظر إليها مبتسماً ثم هز رأسه وخرج.

مع مرور الأيام، كانت بريندا تتقلب ما بين تصديق أخيها وبين الظن

أنه متفائل أبله، فكل شيء في حياته أصبح وردياً وهو يظن أن عالمها يمكن أن يكون مثله..

لقد ارتفع دان في نظرها وتقديرها له. فقد أصغى إليها وفهم.. وازنت كل الوقائع مرات ومرات، كما رتبها عقل دان القانوني.. مع ذلك لم تصل إلى نتيجة.

صحيح أن ليس لديها دليل حقيقي عن إليان.. ما عدا أن جان لم يكن يذكرها قبل ليلة الأوبرا.

أما عماه.. فتعاملها العفوي معه هو الذي أمن لها العمل في الدرجة الأولى!

أخيراً، ليس هناك شيء يُظهر لها أن جان أحبها.. لا شيء.. ولو أن هناك شيئاً، ولو مجرد إشارة، لكانت تصرفت حسب نصيحة أخيها وذهبت لتكلم جان.

بريندا ليست بحال من الأحوال انهزامية. خاصة إذا كانت حياتها على المحك.. لكن كيف تعود إلى منزل جان؟ كيف يمكنها أن تتصل به وليس لديها ما يشجعها ولو بعض الأمل!

مضى على سفر جان أكثر من أسبوع قبل أن تفك بريندا اللفافة عن اللوحة.. أوه.. إنها لا تزال تنوي إعادتها لكن جان أرسلها لها كضيفة في منزلها.. وفي ليلة، وهي في حالة اكتئاب شديد، فتحتها على أمل أن تعطيها ولو قليلاً من المواساة.

مزقت بريندا الورق البني بطريقة خرقاء جداً ثم فتحت بحذر الكرتون المحيط بها بسكين.

كانت قطعة ورق وحيدة ما بين الكرتون واللوحة. وكان بالإمكان أن تمزقها دون تفكير لولا أنها وقعت إلى الأرض.. نظرت إليها بغباء، دون إدراك. كان عليها جملتان مكتوبتان بخط غريفز الغليظ البارز: «آنسة.. نحن لن نذهب إلى أميركا.. بل إلى سويسرا».

سويسرا؟ إلى أخصائي العيون؟ جان ذهب لمقابلة البروفسور؟ «إنه

يفعل هذا لأجلك آنسة.. ولأجلك فقط.. غريفز».

فغرت بريندا فمها تحدق غير مصدقة بآخر جملة. وجسدها كله يرتجف، حتى أن الورقة انزلقت من يدها دون أن تحس وصوت دان يرن في أذنيها.. يا إلهي العزيز! دان على حق! إنه محق! كم كانت غبية.. كم هي غبية بشكل لا يصدق.. لقد كانت مشغولة جداً حتى أنها لم ترَ ما هو واضح بشكل صريح!

لكنه كان واضحاً لدان.. جان يحبها! ولا سبب آخر يدعوه إلى المخاطرة «إنه يفعل هذا لأجلك آنسة».

دون أدنى ظل من الشك، يحبها بقدر ما تحبه كما قال دان، وكما عرف غريفز.. وهي آخر من يدرك هذا!!

قفزت واقفة تلتقط الرسالة تضمها إلى صدرها وقلبها يغني فرحاً.. وقفز دماغها إلى العمل، وتمكنت من رؤية كل شيء لأول مرة بوضوح.

هناك دلائل عديدة تظهر لها أن جان نفسه كان يعيقه عماه.. ليس لأنه لم يعد يستطيع أن يرسم، بل لأنه ظن نفسه غير قادر على الحب أو تقبل الحب.. هناك أشياء كثيرة سمعتها لكنها فشلت في فهمها.

تستطيع سماع صوت جان الآن، حين كان يرد على أسئلتها يوم تحدثا عن مارك.. قال: «لم يعد قلبي يتألم أو يتشوق للقدرة على الرسم».. يومها لم تتوقف للتفكير بالطريقة التي صاغ بها الرد.. فقد قال: «لقد ذهب كل هذا الآن وأتقبله تماماً.. كل ما أتمناه أن يتقبله الآخرون أيضاً».

اجتاحتها موجة خجل وهي تفكر بآخر جملة له، وهي تنظر إلى الموقف كله من وجهة نظر جان.. كان يعرف أنها مصممة على تغييره.. أمضت خمسة أشهر تفعل هذا، ولا عجب أنه ظن أنها لم تتقبله كما هو!

طارت إلى الردهة وانتزعت سماعة الهاتف لتتصل برقم سيلينا هاوس.. ولم يكن هناك رد بالطبع. فلم يمض على سفره أكثر من أسبوع.. والسماء وحدها تعرف كم سيبقى في سويسرا.

كان النوم مستحيلاً تلك الليلة.. في لحظة كانت تضحك بسعادة وفي

الأخرى كانت تمتلىء ألماً وهي تدرك أنها لم تفهم جان أبداً. كلما كانت تقترب من النوم، كانت ذكرى آخر لحظات لها معه تعود لتطاردها «مع الوقت ستقابلين شخصاً تحبينه حقاً، وأرجو أن يستأهلك. شخص يستطيع تقديم حياة طبيعية لك»

حياة طبيعية.. لن يكون هناك أي سؤال عن اللطف لو قبلت فتاة عرض زواج من رجل يمكنه تقديم حياة «طبيعية».. هذه الرحلة إلى سويسرا هي آخر خندق دفاع لجان، آخر محاولة يائسة لتحقيق هذا.. إنها شيء يجب أن يحاوله.. قد لا تنجح العملية، وهو يعرف هذا.. غريفز قال إن المستشفى في لندن أعلنت له أن لا أمل.. وقال إن هذا أمر يعرفه.. في أعماقه، وإنه سيبقى أعمى ما تبقى من حياته.

فهمت بريندا هذا.. وهي تحترم هذا النوع من الحاسة السادسة.

لا.. قد لا يتمكن البروفسور في سويسرا من استعادة بصر جان.. وجان لن يأتي إليها أبداً وهو أعمى.. فلا عجب إذن أنه أنهى علاقته بها كما فعل ودون وعد. فالزيارة للبروفسور شيء عليه أن يجربه، مع أنه يعرف أنه لن ينجح.. أوه.. لا بد أنه الآن يشعر باليأس المريع!

مرت سبعة عشر يوماً آخر قبل أن تحصل بريندا على رد من سيلينا هاوس.. سبعة عشر يوماً وليلة من الانتظار المريع المعذب.. وأيام من السير في الحديقة العامة والشوارع، وليال من القلق والأحلام المزعجة والأمل والسعادة.. والتململ.. لا شك أن البروفسور أجرى لجان جراحة، فلا سبب آخر يبقيه هناك طويلاً.

حين رد غريفز على الهاتف في صباح يوم باكر.. أعادت بريندا السماعة بلطف دون أن تتكلم.. يجب أن لا يعرف جان مسبقاً بزيارتها.. وإلا فلن يدعها تدخل.

استحمت وارتدت ثيابها بعناية فائقة، فهي تحتاج إلى كل ذرة من ثقتها بنفسها.. هل ستتمكن من التواصل مع جان؟ كم دفعته تجربته في سويسرا إلى أعماق نفسه مجدداً؟ وقبل كل شيء.. يجب أن تكون حذرة

وأن لا تتركه يعرف أنها عرفت أين كان وإلا سيظنها عادت إليه بدافع الشفقة.

لم تقد سيارتها إلى هناك بسرعة.. كانت أكثر توتراً من أن تخاطر..

كان الكلبان هناك.. وأحد الجنائنيين في مرمى النظر.. الأراضي، الحدائق، والأشجار تبدو جميلة كما دائماً! إنها بداية الخريف.. بداية موسم جديد.

كان غريفز يتوقعها.. فهو ليس بغبي! رد عليها بصوته الأجش على الأنتركوم في صوت أقرب للهمس، وفهمت أن جان موجود في المنزل.

وجدت الباب الأمامي مفتوحاً وغريفز ينتظر داخل الردهة.. لم يكن هناك وقت للكلام، فجان سمع صوت السيارة. نظر غريفز إلى وجهها وهز رأسه:

ـ لو أن الأمور كانت مختلفة آنسة.. لجاء هو إليك.

همست:

ـ أعرف.. شكراً لك غريفز.. شكراً لكل شيء.

نظر غريفز بسرعة نحو باب غرفة الجلوس. وقال:

ـ يجب أن أعلن عن وصولك.

لكنه بقي حيث هو، وتركها تشق طريقها بنفسها.. عند الباب توقفت، استدارت لتنظر إليه بعجز.. فابتسم لها وهز رأسه بنفس الطريقة التي فعلها دان منذ ثلاثة أسابيع.

أخذت نفساً عميقاً.. وتلت صلاة صامتة.. ثم بلطف دفعت باب غرفة الجلوس.

* * *

١٤ ـ ساعدني كي أغلبك!

كانت الغرفة باردة بالرغم من النار المشتعلة في المدفئة..

كان جان جالساً في مقعده المعتاد، عيناه مغمضتان، رأسه يستريح على أحد جناحي المقعد. أصابعه النحيلة مكورة في قبضة.. كان يرتدي الملابس التي كان يرتديها يوم الوداع، وانقبض قلب بريندا لمنظره.. بدا شعره أكثر بياضاً على جانبيه، فمه رفيع الشفتين، مشدود بقسوة.. قسوة أضافت عليها الكثير دون إرادة منها.. للحظة لم تستطع أن تتحرك أو تتكلم.. بدا أكثر نحولاً معتل الصحة.. ومتعزلاً تماماً.

تنفس جان بعمق.. أصبح هذا العطر يلاحقه باستمرار! كم مرة تصور وجودها، سمع صوت ضحكتها يوماً إثر يوم. كانت هناك في تفكيره، في قلبه.

ـ ماذا هناك غريفز؟ لماذا أنت واقف هنا؟

قالت بنعومة:

ـ أنا أقف هنا لأنني لا أعرف ما إذا كنت ترحب بي أم لا.

للحظة فقد السيطرة على نفسه.. ورأت بريندا الألم والسعادة والارتباك على وجهه، ورأت تصلب جسده وهو يجلس مستقيماً في مقعده:

ـ بريندا؟ ماذا.. لماذا أنت هنا؟

ثم بصوت لا يشبه أبداً صوته المخملي سأل:

ـ ما الذي تريدينه بحق الشيطان؟

تحركت نحوه ببطء، لم تخدعها أبداً قساوته. إذن هكذا سيكون الأمر.. كل الدفاعات انطلقت ضدها.. هل هو غبي ليعتقد أنه قد يخيفها لتهرب؟

ـ كان يجب أن أراك.. نحن صديقان على أي حال.. أرجوك اسمعني جيداً جان.. فلدي مشكلة.

أمسكت أنفاسها ترى المعركة الدائرة داخله:

ـ جان.. أرجوك!

ـ حسن جداً.. اجلسي.. سأساعدك دائماً لو استطعت.. ما الذي يزعجك؟

الكلمات لا بأس بها لكن الطريقة حازمة.. جلست على مقعد منخفض، وتحركت قريباً منه متوترة:

ـ المكان بارد هنا.. لكن الخريف وصل، فماذا تتوقع؟ الحديقة تبدو جميلة.. كل الأشجار بدأت في..

أغمض عينيه:

ـ ادخلي صلب الموضوع بريندا.. ماذا تريدين؟

هناك الكثير تريد قوله.. أشياء كثيرة تريد أن تقولها له قبل أن تصل إلى طلبها.. راجعت في عقلها كل شيء مليون مرة خلال السبعة عشر يوماً المريعة.

لكنها انتظرت طويلاً، وهو انتظر طويلاً أيضاً.. الآن كل ما تريده هو أن ترمي نفسها بين ذراعيه، وتتوسل إليه أن.. يتزوجها!

قال بصوت شرير: قلت.. ماذا تريدين؟

خرجت أنفاس بريندا شاهقة، وهي تدرك من كلامه أنه كذلك يحارب ليسيطر على نفسه.

قالت بهدوء:

ـ أريدك أنت، لكنك تعرف هذا. رأيك كان خاطئاً.. حين قلت لك

إني أحبك... قلت إن عليّ الانتظار بضعة أسابيع، حتى أرى كم تختلف مشاعري.. لقد انتظرت ولا أشعر بأي اختلاف.. كوني بعيدة عنك جعلني أحبك أكثر إذا كان هذا ممكناً.. أريدك أنت جان، ولا أستطيع العيش دونك.. أحببتك منذ البداية.. وأحبك الآن، وسأحبك إلى الأبد.

رأت أصابعه تشتد على ذراعي المقعد، وفمه يلتوي وكأنه يتألم:

ـ إلى الأبد؟ أوه بريندا.. لا يجب على الناس أن يتجرأوا على مثل هذا الكلام.. فنحن لن نتمكن...

ـ أنا هنا لأطلب منك أن تتزوجني جان.

بدا مصدوماً حتى الأعماق.. وفتح فمه ثم أغلقه دون خروج كلمات منه.. تقدمت منه أكثر، تضع يدها في يده، لا تحاول كبت دموعها المتدفقة من عينيها.

ـ جان.. أرجوك.. أعرف أنك تحبني.. أعرف.. أرجوك.. تزوجني.. لا أستطيع الاستمرار دونك.

ـ أوه.. بريندا.

فجأة سحقها بين ذراعيه وغمرها بقوته الدافئة.

ـ أوه حبيبتي.. أحبك.. أحبك أكثر مما أحببت شيئاً أو أحداً.. أحبك كثيراً حتى أنني..

ضحك ضحكة جوفاء:

ـ أحبك كثيراً حتى أنني لا أستطيع الزواج بك.

صاحت منتحبة، تتعلق به يائسة:

ـ لكن لماذا؟ لماذا تريد طمس السعادة التي يستطيع المستقبل تقديمها لنا؟ أنا مجنونة بك وأظنك تعرف هذا.. لقد انتظرتك طويلاً، وأنت كل ما أريده في رجل.. وأنت.. حبيبي.. وأعتقد أننا لو التقينا في مكان مختلف وزمان مختلف لما تحابينا.. لكننا هنا الآن، نحتاج بعضنا بعضاً.. كل ما مررت به جعلك الرجل الذي أنت هو اليوم.. الرجل الذي أحب، فيك القليل من سكوت ستيفن، والكثير من مارك.. حساسية

مارك.. لكن أساساً أنت أنت نفسك، جان، وهذا هو من أحبه. لو التقيتك وأنت مارك ما كنت لأحبك.. لو التقيتك بعد عشر سنوات وأنت سكوت ستيفن المليء بالمرارة والغضب لما أحببتك.. لكن نحن هنا الآن والمستقبل أمامنا لنكبر ونتغير معاً بالطريقة المناسبة».

رد بهدوء: لا.. هنا بالضبط أنت مخطئة.. أنت تحبين مارك.

صاحت: لا! هذا ظلم!

نظرت إليه غير مصدقة، وتمسك غضب مفاجىء بنياط قلبها.. خوف من نوع جديد وليد إدراك مفاجىء:

ـ بمن تقارنني؟ بزوجتك السابقة؟ هل هذا هو الأمر جان؟ هل هذا هو؟ أنا.. أعرف بأمر الطلاق.. نشر كل شيء في الصحف.. أعرف عنها.. و.. وعن ذلك الرجل الآخر. ما الذي حدث؟ أنت لم تتكلم أبداً عن الأمر.. أرجوك أخبرني! أرجوك قل لي الآن!

أبعدها بلطف عنه.. ووقف ليشعل سيكارة. انتظرت بريندا تعرف أن ما سيقوله له الأهمية القصوى.

ـ ليس هناك الكثير! أنا.. هي.. إليان كانت تعمل «موديل» رسم لي.. واحدة من عدة نساء. كانت جميلة بشكل لا يصدق، وكنت شاباً مقتنعاً أن الجمال هو جمال الشكل فقط.. وجدتها فاتنة، مثيرة، تتفجر حيوية للحياة. كانت من عائلة فقيرة.. كانت ذكية لكن جمالها كان ميزتها الوحيدة، وتعرف هذا. أسرفت في ملاطفتي بداية، وجننت بها بعد ذلك.. حين تزوجنا، تغيرت بين ليلة وضحاها.. ساعتها فقط رأيتها على حقيقتها.. كانت تحب المال، اللقب الذي أحرزته بعد زواجنا، مجد أن تكون زوجة.. وأنا لم أحب يوماً أن أكون وسط الأضواء.. طالما أحببت العيش بهدوء، طالما فضلت أن أبقى خلف الستار.. أهتم فقط بعملي.. لكن إليان لم يعجبها هذا.. كانت دائماً تتحدث إلى الصحافة، إلى الناس في عالم الفن.. ترتب الحفلات والمعارض.. معارض لم أكن أحتاجها حقاً.. ولا أردتها. أنا.. ما كنت لـ..

وتلاشى صوته.. وسحب أنفاساً قوية من سيكارته واستند إلى ـار، وكأنما تلك الذكريات أرهقته عاطفياً.

ـ أكنت تحبها يوم طلقتها؟

ـ نعم ولا. لقد فهمنها على الدوام وتجاوزت ما هي عليه.. وما كان أن يدوم، كانت المسألة مسألة وقت قبل أن ينتهي بي الأمر إلى ـينها. بريندا، أجد صعوبة في الكلام عن إليان لك.. إنها لا تصلح ـح حذاءك حبيبتي.. وأنا أخجل من التفكير.. ما أحسست به نحوها ـكن حقيقياً.. لم يكن حباً. لم أكن أعرف ما هو الحب في تلك ـام..

ـ لكن ماذا حدث؟ ما سبب الطلاق إذا كنت لا زلت تشعر بشيء ما ـوها؟ هل كان ذلك بسبب الرجل الآخر؟

ـ لا.. لم تكن قد قابلته بعد.. كلفت إليان محامياً لترتيب أوراق ـلاق بعد أسبوعين من حادثة تحطم الطائرة.. لم تنتظر حتى إلى أن ـدر المستشفى لتبلغني قرارها.. أوضحت تماماً أنها لن تتمكن من ـش مع رجل أعمى.

عضت بريندا شفتها محاولة خنق شهقة رعب. التفكير بأن جان ـاد وعيه ليكتشف أنه أعمى وأنه لن يتمكن من الرسم مجدداً.. ثم.. تُظهر له زوجته أنه أصبح لا قيمة له.. يا له من توقيت! ويا لها من ـرة شريرة!

أكمل جان:

ـ تركتني على الفور.. وما هي إلا أشهر حتى اتفقت مع ذلك الممثل ـطالي.. ولم أعتقد للحظة أنها تحبه.. لكنه قادر على أن يوفر لها نوع ـياة التي تريدها.. حفلات مستمرة، دعاية، ذكر اسمها الدائم في ـلات المجتمع..

راقبته بريندا وصوته يتلاشى.. إذن كانت كائلين على حق.. زوجته ـابقة هي العقبة.. ولا تزال.. وهو يخذلها.. وتدفع ثمن

الضرر الذي سببته له امرأة أخرى!

ـ لكن جان.. أنا لست إليان! ألا ترى أنني مختلفة؟

ـ مختلفة؟

تقدم إليها بسرعة وأمسك بيديها، يرفعهما إلى شفتيه:

ـ أوه.. أجل حبيبتي.. أنت مختلفة!

ـ إذن لماذا نبذتني؟

ـ أوه بريندا، لم يكن نبذاً.. لا تقولي هذا.. أعرف معنى الشعور بهذا.

ـ لقد كان نبذاً.. حين.. حين أبعدتني، جعلتني أشعر أن لا قيمة لي، لا أنفع شيئاً أو أحداً.. لماذا جعلتني أدفع ثمن ما فعلت هي؟ إليان لم تحبك يوماً كرجل.. لكنني أحبك! أحبك كما أنت! لماذا.. لماذا ترفضني؟

جذبها نحوه وأحاطت ذراعه بخصرها وهو يقودها نحو الأريكة:

ـ لأنني أعمى.. وهذا شيء لن نستطيع تغييره.. أنا أعمى وسأبقى هكذا ما تبقى من حياتي.

ـ أعرف هذا.. لكن ما الفارق؟

اشتدت أصابعه حول أصابعها وابتسم بحزن:

ـ كيف تقولين هذا؟

ـ لأنه أمر صحيح! لا فرق عندي.. ولم يكن هناك فرق ولن يكون مستقبلاً.. جان، هناك شيء أريد أن أوضحه لك.. أنا.. كما كنت معك هنا، خلال تلك الأشهر.. لم أكن أحاول تغييرك لأنني لم أكن راضية بك.. لقد أحببتك قبل أن تبدأ بالتغيير.. لقد فعلت ذلك لأجلك.. لا.. هذا غير صحيح، بل فعلته لأجلي أنا كذلك. عرفت أنك رجل قادر على التمتع بالسعادة.. عرفت هذا لأنك مررت بألم كبير.. والسعادة والألم يأتيان من مصدر واحد.. لك قدرة هائلة على الحب، على الفهم، والحياة.. وفعلت كل هذا لأنني أحبك.. والحب يأتي بالدرجة

الأولى.. اجبني جان! افهمني! عش معي وأنا زوجتك.. تقبلني وسأجعلك سعيداً. أعرف أنني قادرة على هذا.

تنهد مستديراً عنها، وكأنه قادر على رؤية التعاسة التي يعرف أنها مرسومة في عينيها:

- بريندا.. يبدو أنك لم تفهمي.. أوه.. لقد تعاملت جيداً مع عماي لبضعة أشهر. لكن الأمر سيكون مختلفاً على المدى الطويل.. أنت شابة وترغبين في حياة طبيعية، زوج يستطيع مشاركتك كل شيء.

- لكنك تستطيع هذا.. تستطيع! لقد أثبتنا هذا!

- حبيبتي.. هناك شيء أريدك أن تعرفيه.. أنا لم أذهب إلى أميركا..

- لكن.. ألم تسافر؟ أتعني..

- كان هناك مجرد فرصة بأن يساعدني الطب. كان أملاً ضعيفاً لكنني قبلت به.. كان عليّ أن أجرّب.. كنت يائساً حين تكلمت عن الرحيل، حين فكرت أنني على وشك أن أخسرك إلى الأبد.. ولو نجحت التجربة، صدقيني، كنت سأهرع إلى بابك أتوسل إليك أن تتزوجيني.. لكنها لم تنجح.. لقد.. قابلت ذلك الرجل في سويسرا.. إنه أخصائي عيون، صديق قديم للعائلة.. لقد اتصل بي منذ وقت طويل وطلب أن يفحصني. لم يعطني وعداً لكنني فكرت أن هناك تقنية جديدة.. تقدم جديد في السنوات المنصرمة.. وربما..

- ذهبت لمقابلة البروفسور؟

لم يكن الاستغراب في صوتها زائفاً تماماً، لقد أدهشها جان بقوله هذا لها.. واتخذت قراراً في لمح البصر.. هنا، الآن، هي فرصتها الأخيرة لاختراق دفاعاته.. إنها تقاتل لأجل حياتها.

رفع رأسه بحدة: البروفسور؟ أكنت تعرفين بأمره؟

- طبعاً.. عرفت به منذ زمن بعيد.. سألت غريفز ما الذي حدث للوحة «البستان في فرساي» الأصلية.. وأنت تعرف أنني أفضلها. فأخبرني أين هي وكيف أرسلتها بعد الاتصال مع صديق العائلة.. لكن

ماذا في هذا؟

كانت عينان سوداوان فاحمتان تنظران إليها دونما تصديق.

- أتعنين أنك عرفت أن هناك فرصة و.. ولم تذكري هذا أبداً؟ لم تذكري هذا مرة واحدة؟ كان هناك فرصة، ولم تذكريها..! لماذا.. لماذا؟

تهلل قلبها بهجة.. فقد عرفت أن النصر أصبح لها. كل ما عليها أن تعطيه الرد المناسب:

- قلت لي مرة إنك تعرف بأنك ستبقى أعمى ما تبقى من حياتك، وتقبلت هذا.. تفهمته، واحترمت هذه القناعة الداخلية.

رمت بذراعيها حوله:

- هل فهمت حبيبي؟ عماك لم يكن له أي فارق أبداً عندي.. الآن هل تتزوجني؟

- بريندا!

ولم يستطع قول المزيد، لم يكن يريد قول أكثر من هذا. شدها بين ذراعيه وقال لها دون كلمات كم يحبها. وهو يضمها أحست بالبلل على خديها.. هل هي دموعها أم دموع جان.. لا تدري.. كانا يتعانقان وكأن لا غد أمامهما، مع أنهما يدركان الآن معاً أن هناك الكثير من الغد.

أخيراً ابتعد عنها وكان صوته مثقلاً بالمشاعر:

- أوه حبيبتي.. لو تعرفين كم أردتك! كيف قاومت لأحتفظ..

ابتسمت:

- أعرف لأنني مررت بذات الأحاسيس.

أمسكت يده تضعها على قلبها.

- وسيكون هذا عالماً جديداً تفتحه لي.. شيء آخر ستعرفني عليه وسيكون جميلاً جداً.

ضمها إليه مجدداً، يضحك بنعومة. لقد وجد الإنسانة التي انتظرها طويلاً وليس فقط لخمس سنوات، بل العمر كله.

- هذا كله غلط.. وتعرفين هذا.. أنا الذي يجب أن أجثو على ركبتي أتوسل إليك أن تتزوجيني.

ضحكت:

- حسناً.. يجب أن أقول إن كل فتاة تتمنى أن يجيء طلب الزواج من الرجل الذي تحبه.. بدلاً من العكس.. فما هو رأيك؟

لامست شفتاه خدها:

- بريندا.. حبيبتي.. هل تتزوجيني؟

ضحكت بطيش:

- همم.. هناك مشكلة صغيرة..

- أوه.. حقاً؟ وما هي؟

- غريفز.. كيف ستقول له إننا سنتزوج؟ لن أتحمل النظرة على وجهه!

رمى جان رأسه إلى الوراء يضحك بابتهاج صرف.

- سأقول له أنا..! سأقول له!

* * *